المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

في التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالبة:

سمية بنت عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس

الرقم الجامعي (٤٣٠٨٨٢١١)

إشـراف فضيلة الشيخ:

أ.د. طه عابدين طه

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، ووبعد:

فهذه رسالة علمية بعنوان (**التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء**)، وهي جزء من مشروع علمي للرسائل الجامعية تبناه قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى، تتناول دراسة مصطلح جديد في التفسير، وهو التناسق الموضوعي. ولقد تم دراسة هذا المصطلح وتطبيقه في هذه الرسالة على سورة الأنبياء، وقد قسمت الباحثة هذه الرسالة إلى مقدمة، وبابين، وخاتمة.

فالمقدمة: تحتوي على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ، وأهداف البحث، والجهود والدراسات السابقة في الموضوع، ومنهج البحث، وهيكل البحث ومحتواه.

والباب الأول: **التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء مقدمات تعريفية**، ويحتوي على تمهيد وثلاثة فصول:

فالتمهيد: يحتوي على مقدمات تعريفية للتناسق الموضوعي في السورة القرآنية.
والفصل الأول: يحتوي على مقدمات تعريفية لسورة الأنبياء
والفصل الثاني: يحتوي على مكي سورة الأنبياء ومدنيها، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها.
والفصل الثالث: يحتوي على أسباب النزول الواردة في سورة الأنبياء، ومقاصد السورة.
والباب الثاني: **التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء دراسة تطبيقية**. ويشتمل على ثلاثة فصول:
فالفصل الأول: يحتوي على مناسبات سورة الأنبياء. وفيه ثلاثة مباحث.
والفصل الثاني: يحتوي على موضوعات سورة الأنبياء وتناسقها، وفيه أربعة مباحث.
والفصل الثالث: يشتمل على تفسير آيات سورة الأنبياء في ضوء تناسقها الموضوعي.

وقد أظهر هذا البحث عددا من النتائج، من أهمها ما يلي:

أولا : أن الموضوع الكلي الذي تدور عليه موضوعات سورة الأنبياء هو: الإيمان بالله ، وأن الموضوعات التي عالجتها السورة تمثلت في أربعة موضوعات رئيسية وهي:

أ/ تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

ب/ تقرير البعث ووحدانية الله تعالى.

ج/ إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.

د/ بيان عاقبة المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

ثانيا: أن هناك تناسقا بين هذه الموضوعات، حيث جاءت كلها في سياق متآلف، فكأنها بنيان متين.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل..

The summary of the thesis

Praise and glory be to Allah, and peace and blessings be upon His prophet Mohammed.

This thesis entitled " the objective consent in Surat Al-Anbiya' " is a part of a project for the university researches sponsored by the college of Da'wa & religious studies represented by Al-ketab and Al-sunna's section dealing with a new term in Al-Tafseer: the objective consent. In this thesis the new term was studied and applied on Suart Al-anbiya'.

The researcher has divided the thesis into a preface, two chapters and a conclusion.

The preface contains the importance of the subject, the reasons for choosing it, research questions, targets, efforts , previous studies, its approach, structure and content.

The first chapter : Introductions. It contains a preamble and three sections.

The preamble: contains Introductions for the objective consent in the Quranic *suras*.

The first section: contains the Introductions of Surat Al-'Aanbiya' .

The second section: contains the *Makki* and *Madani* verses in Surat Al-'Anbiya', their relevance to the *verses* before and after, and what the holy *Sura* is a special in.

The third section: contains the causes of revelation mentioned in Surat Al-'Anbiya', the *sura's* purposes and objectives .

The second chapters: An applied study of the objective consent in Surat Al-'Anbiya'. It includes three sections:

The first section: contains the interconnections of Surat Al-Anbiya'. It includes 3 subsections.

The second section: contains the topics of Surat Al-'Anbiya' and their coordination . It includes four subsections.

The third section: contains the interpretation of the verses of Surat Al-'Anbiya' within its objective consent .

This thesis showed a number of results. The most important ones are as follows :

First: The focus of all the topics of Surat Al-'Anbiya' is the faith in Allah. The four major topics that have been dealt with in the sura are:

A. The denial of people to The Hour, the warning Prophet, The Book revealed to him, and the clarifying of the consequences of the disbelievers.

B. The Resurrection and monotheism.

C. Examples for the common call of the prophets and the aid of Allah to them.

D. The consequences of the believers and disbelievers in this world and the Hereafter.

Second: There is a clear harmony between these topics as they all came in a consistent context and a solid pattern, just like an interconnected structure.

May Allah lead and guide us to the His straight path.

شكر وتقدير

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وعظمته، والحمد لله على ما وفق ويسر وأعان، والحمد له على ما سخر لطلاب العلم من الوسائل العلمية التي تعينهم على مسيرهم.

ثم أشكر والدي الكريمين اللذين أنشآنا على حب العلم، وأشكر كل أفراد عائلتي الذين ساعدوني كل بما يستطيع، فجزاهم الله خيرا.

وأشكر جامعة أم القرى على ما قدمته من برامج للطلبة، وأشكر المشايخ والأساتذة الكرام، الذين انتفعت بعلمهم، أخص بالذكر المشرف الفاضل فضيلة الأستاذ الدكتور طه عابدين، حيث لم يبخل بنصح ولا إرشاد، بل كان يبذل الكثير من النصح والصبر، فجزاه الله عني خيرا.

وأشكر المناقشين الكريمين على نقدهما لهذا العمل، أسأل الله أن ينفع به.

والحمد لله رب العالمين.

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد...

فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأشرف العلوم ما تعلق بهذا الكتاب المجيد، وخير ما يشتغل به الإنسان خدمة كتاب الله عز وجل وتعليمه، قال ﷺ "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ([1])، وحري بكل مسلم يسمع بهذه الشهادة من رسول الله ﷺ أن يسعى لأن يكون من أهلها.

وسعيا مني لأن أكون من ينطبق عليهم هذا الحديث طلبت الانتساب إلى شعبة التفسير في مرحلة الماجستير، وقد أكرمني الله تعالى بإتمام السنة المنهجية فيه، ونفعني بدراسة كتب علمائنا السالفين، وبتدريس أساتذة فضلاء لم يألوا جهدا في بذل النصح وإسداء المشورة لطالباتهم فجزاهم الله عنا خيرا..

لا يخفى على المطلع على كتب التفسير أنها تقسم إلى أربعة أقسام بحسب أسلوب المفسر في تفسيره، بيانها كما يلي:

١. **التفسير التحليلي**: يعمد المفسر فيه إلى التحليل في الآية، فيبين ما يتعلق بها من سبب النزول، ومعاني المفردات وإعراب المشكل، وبيان المجمل، وأوجه القراءات ونحو ذلك مما يتقرر به معناها. وقد غلب هذا المنهج على الكتب المتقدمة منذ مطلع القرن الرابع الهجري تقريبا، مما وصل إلينا.

٢. **التفسير الإجمالي**: يكتفي ببيان المعنى العام للآية دون الدخول في التفصيلات أو الأحكام الجزئية.

٣. **التفسير المقارن**: يجمع المفسر قولين في الآية ويقارن بينهما ، ويرجح ما يراه راجحا. ([2])

٤. **التفسير الموضوعي** وقد قسمه العلماء إلى أنواع يمكن إجمالها في نوعين هما:

- التفسير الموضوعي لموضوع من موضوعات القرآن الكريم، فيدرس المفسر الآيات التي تناولت الموضوع، ويجمعها، ويستوعب تفسيرها، ثم يكتب عن هذا الموضوع وعن طريقة القرآن

([1]) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ح(٤٧٩٣)

٢ ينظر: فصول في أصول التفسير (٢٠، ٢١)

في تناوله، ويربطه بحياة الناس وواقعهم. ومن أمثلة هذا النوع: الكتب المختصة بنوع من أنواع علوم القرآن، مثل: الناسخ والمنسوخ، أحكام القرآن، مجاز القرآن.

● التفسير الموضوعي لسورة من سور القرآن الكريم: ويعتني فيه الباحث باستخراج الأهداف الأساسية للسورة، وتكون هذه الأهداف هي محور التفسير الموضوعي للسورة. ([1])

ولأهمية التفسير الموضوعي اخترت أن أقدم رسالة الماجستير في النوع الأول منه وهو التفسير الموضوعي لسورة من سور القرآن والسورة المختارة هي سورة الأنبياء، فجاء عنوان البحث:

(التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء)

أهمية الموضوع:

تتضح أهمية البحث في التناسق الموضوعي للسورة القرآنية فيما يلي:

● أنه يبين البلاغة العالية في القرآن الكريم، من خلال استخراج الترابط الوثيق بين آيات السورة وإن كان ظاهرها عدم الارتباط، وفي هذا بيان للإعجاز البياني في القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق بكثرة الرد.

● أنه جمع محاسن التفسير التحليلي من تفسير الآيات حسب ترتيبها في المصحف، ومحاسن التفسير الموضوعي ؛ حيث فسر الآيات كلها وفق موضوعات مترابطة متناسقة.

● أنه يسهل فهم السورة القرآنية وذلك من خلال فهم موضوعها العام والموضوعات الفرعية فيها.

● أنه يفتح بابا واسعا أمام الباحثين لمزيد تدبر ونظر في القرآن الكريم.

سبب اختيار الموضوع:

جاء اختياري لهذا الموضوع لأسباب منها:

- الحرص على خدمة القرآن وتقديم التفسير بأسلوب يناسب الناس في العصر الحاضر.
- تحقيق الغرض من نزول القرآن وهو التدبر. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[سورة ص:٢٩] حيث إن المرء لا يستطيع أن يتوصل إلى التناسق الموضوعي إلا من خلال التدبر والنظر العميق.
- بيان وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو الإعجاز اللغوي.

[1] ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، (٢٧، ٢٨) بتصرف.

- تضمن سورة الأنبياء دلائلَ وعبرًا يحتاج إليها كل مسلم ، مما يستدعي دراستها دراسة عميقة.

أهداف البحث:

١. التعريف بالتناسق الموضوعي.

٢. إبراز الدراسات السابقة في سورة الأنبياء.

٣. معرفة الأسماء الواردة لسورة الأنبياء. وفضلها، وتاريخ نزولها، وعدد آياتها. وأسباب النزول الواردة فيها. مناسبتها لما قبلها وما بعدها من السور.

٤. معرفة مقاصد سورة الأنبياء.

٥. معرفة ما اختصت به سورة الأنبياء.

٦. دراسة الموضوعات الرئيسية في سورة الأنبياء. وبيان مدى تناسقها.

٧. تفسير سورة الأنبياء في ضوء تناسقها الموضوعي.

الدراسات السابقة:

فسر المفسرون المتقدمون سورة الأنبياء تفسيرا تحليليا، أو إجماليا، بحسب المنهج الذي ساروا عليه في كتبهم، ولم يتطرقوا إلى التفسير الموضوعي بالشكل الذي نبحث فيه اليوم، ولكن كان عند بعضهم إشارات في التناسب بين الآيات أو بين السور دون توسع ودون استقصاء، بل يذكر ما يظهر له من المناسبات دون التزام منهج معين في ذلك. منهم:

- فخر الدين الرازي[١] في كتابه: **مفاتيح الغيب**
- أبو حيان الأندلسي[٢] في كتابه **البحر المحيط**.
- أبو السعود[٣] في كتابه **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**.

وأما المؤلفات في المناسبات فمنها:

- **البرهان في تناسب سور القرآن** الذي ألفه أبو جعفر بن الزبير الغرناطي[١]. واعتنى بالمناسبات بين السور فقط، وهو من أوائل الكتب في علم المناسبات.

---

(١) الرازي (٥٤٤- ٦٠٦): هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن، من ذرية أبي بكر رضي الله عنه، عالم مفسر فقيه متكلم، من كتبه: التفسير الكبير. (طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ٦٥)

(٢) أبو حيان: (٦٥٢- ٧٤٥هـ) محمد بن يوسف بن علي بن حيان. مفسر نحوي لغوي له تصانيف في علوم متنوعة، صنف في التفسير: البحر المحيط. (طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٣ / ٦٧)

(٣) أبو السعود: (٨٩٦- ٩٥٢) محمد بن مصطفى بن عماد الاسكليبي الرومي، ولي القضاء في اسطنبول، ومنصب الإفتاء. من كتبه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. (النور السافر عن أخبار القرن العاشر(١١٩)

● **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين البقاعي[٢] وهو من أشمل ما كتب في علم المناسبات، فقد اعتنى عناية فائقة باستخراج كل ما يمكن من المناسبات بين السور، والآيات، وأجزاء الآيات، واعتنى ببيان اللطائف اللغوية.

● **تناسق الدرر في تناسب السور** لجلال الدين السيوطي[٣]، وقد طبع بعنوان أسرار ترتيب القرآن. وقد اقتصر فيه على بيان المناسبة بين السور باختصار ودون توسع.

● **قطف الأزهار في ترتيب الأسرار للسيوطي**، ذكر فيه كثيرا من أسرار النظم القرآني، وتطرق إلى مناسبات السور، ومناسبات الآيات، وكانت آخر سورة كتب فيها هي سورة التوبة[٤].

● **مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع** للسيوطي أيضا، اعتنى فيه ببيان مناسبة خاتمة كل سورة لفاتحتها، بإيجاز واختصار.

● **بصائر ذوي التمييز** للفيروزآبادي[٥]، وهو كتاب في علوم القرآن، أورد بعض المباحث المتعلقة بسور القرآن، فيذكر في كل سورة مباحث، منها: مقاصد السورة.

وأما العلماء المتأخرون فقد ظهر الاهتمام عندهم بالمناسبات، ومقاصد السور وموضوعاتها بشكل أكبر، ومن أبرز كتب التفسير المتأخرة التي اعتنت بالمناسبات والمقاصد:

● **التحرير والتنوير** للطاهر بن عاشور[١]. يتكلم عند تفسيره للسورة عن مقاصدها وموضوعاتها، ويبين بعض المناسبات بين آياتها.

---

(١) أبو جعفر ابن الزبير (٦٢٧ – ٧٠٨هـ): هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبو جعفر الغرناطي، ولد في جيان بالأندلس، كان عالما بالقرآن وقراءاته، وبالحديث ورجاله، واللغة والفقه، وتصدر للتدريس في هذه العلوم زمنا. (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (١/ ٢٦)

(٢) البقاعي (٨٠٩– ٨٨٥هـ) : إبراهيم بن عمر بن حسن بن الرُّباط البقاعي، برهان الدين، برع في كثير من العلوم منها التفسير والفقه والقراءات، والنحو، تميز بكتابه في التفسير، الذي يعد مرجعا في موضوعه. (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/ ١٨)

(٣) السيوطي(٨٤٩– ٩١١هـ): جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، عالم متفنن، ألف في التفسير والحديث واللغة وغيرها، من كتبه: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي في علوم القرآن. (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١١٢))

(٤) ينظر: قطف الأزهار للسيوطي، تحقيق: د. أحمد الحمادي (٨٢/١، ٨٥)

(٥) الفيروز آبادي (٧٢٩ –٨١٧ هـ) : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز بادي، كان بحرا في اللغة، عالما بالتفسير، والفقه والحديث، تنقل في طلب العلم وتعليمه بين عدد من البلدان. من أشهر كتبه: القاموس المحيط. (طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٤/ ٥٦)

● **في ظلال القرآن** لسيد قطب[٢]. تميز في تقسيم السورة إلى موضوعات، واستنباط المناسبات بين الآيات دون توسع.

ومن العلماء من اهتم بالوحدة الموضوعية للسورة، منهم:

● الدكتور: محمد عبد الله دراز[٣] في كتابه النبأ العظيم، حيث فصل في الوحدة الموضوعية في سورة البقرة، واستنبط أن موضوعاتها على تعددها ترجع إلى وحدة واحدة.

● الشيخ: سعيد حوى[٤] في كتابه القيم: الأساس في التفسير، تكلم في بداية كل سورة عن محورها تحت عنوان: كلمة في السورة.

ثم قسم السورة إلى مجموعات، ولم يعنون لها، وبين موضوعها تحت عنوان: كلمة في سياق الآيات، وبين فيه ارتباطها ببعضها وارتباط المجموعة بما قبلها وما بعدها. ثم فسر آيات المجموعة. وقد اهتم ببيان ارتباط محاور السورة بمحاور سورة البقرة، مما أفقد تفسيره روح التناسق الموضوعي في السورة الواحدة.

وفي العصر الحاضر توجهت جهود كثير من علماء التفسير إلى التفسير الموضوعي، واهتموا بوضع قواعد له وتطبيقه بشكل منهجي منظم، ومن الجهود البارزة في ذلك: موسوعة (**التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**) وهو مشروع من جامعة الشارقة، وقام على تأليفه عدد من الأساتذة بإشراف الدكتور مصطفى مسلم، وكانت دراستهم لسورة الأنبياء على النحو التالي:

- تقديم للسورة يحتوي على اسم سورة الأنبياء وفضلها ومكيها ومدنيها وعدد آياتها ومحورها.
- تلا ذلك ذكر المناسبات في سورة الأنبياء.
- ثم تم تقسيم سورة الأنبياء إلى مقاطع، وكل مقطع تحته:

١. مناسبة المقطع لما قبله.

٢. التفسير الإجمالي.

---

(١) ابن عاشور (١٢٩٦ - ١٣٩٣هـ): هو محمد الطاهر بن عاشور، ولد وتوفي بتونس، وكان رئيس المفتين المالكيين وشيخ جامع الزيتونة بها. صنف في علوم عديدة، من أبرز مصنفاته: التحرير والتنوير في التفسير. (الأعلام للزركلي (٦ / ١٧٤).

(٢) سيد قطب إبراهيم (١٣٢٤- ١٣٨٧هـ): أديب ومفكر مصري معاصر، اهتم بإصلاح المجتمع الإسلامي، وإعادة الشريعة إلى حياة الناس، قتل سنة ١٣٨٧هـ. الأعلام للزركلي (٣/ ١٤٧).

(٣) محمد بن عبد الله دراز (١٣١٣-١٣٧٧هـ): فقيه معاصر، أديب مصري أزهري. كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. . (الأعلام للزركلي (٦/ ٢٤٦)

(٤) سعيد محمد أديب حوّى (١٣٥٤-١٤٠٩هـ): مفكر إسلامي سوري معاصر، عمل بالسعودية مدة، وله مؤلفات عدة، تولى قيادة جماعة الإخوان المسلمين حتى تركها لمرضه. (تتمة الأعلام لمحمد خير رمضان (١/ ٢٠٧).

٣. الدروس المستفادة من المقطع.
٤. مناسبة المقطع لمحور سورة الأنبياء.

- وأما قصص الأنبياء فكانت كما يلي:

١. جُعلت قصص الأنبياء كلها مقطعا واحدا.
٢. قُسِّم المقطع إلى مجموعات بحيث جُعلت كل قصة مجموعة مستقلة
٣. قسمت المجموعات كتقسيم المقطع.

وأما خطة البحث الذي سأقدمه إن شاء الله فتختلف عن طريقة هذا المشروع، وبيان ذلك فيما يلي:

- يقوم بحثي على بيان موضوعات سورة الأنبياء إجمالا وتفصيلا، وأما مشروع جامعة الشارقة فقد غلب عليه الإجمال.
- أذكر المناسبات بين الآيات، بينما المشروع اقتصر على مناسبة المقطع لمحور سورة الأنبياء، ومناسبة فاتحة سورة الأنبياء لخاتمتها، ومناسبة مضمون سورة الأنبياء لمضمون ما قبلها.
- أقسم سورة الأنبياء إلى موضوعات، وأبين وجه اتصالها ببعضها، وأما ما قدمه المشروع فقد بين علاقة كل مقطع بالمحور العام وبما قبله من المقاطع، ولكن لم يظهر فيه وجه اتصال المقاطع ببعضها في خدمة المحور العام للسورة.

منهج البحث:

١- الالتزام بالخطة المقررة لهذا المشروع من مجلسي القسم والكلية بالجامعة.
٢- تقسيم السورة إلى أربعة موضوعات ووضعت عنوانًا مناسبًا لكل موضوع.
٣- تصدير كل موضوع من موضوعات السورة بالآيات القرآنية الخاصة به.
٤- ذكر روايات أوردها المفسرون في أسباب النزول وإن لم يُجزم بصحتها.
٥- بيان وجه التناسق بين كل موضوع وآخر، وربطت كل موضوع بما قبله وما بعده.
٦- التعرض بتوسع لمقاصد السورة.
٧- تفسير آيات الموضوع الواحد تفسيرًا إجماليًا مع مراعاة وجه التناسب في الآيات ، مع التركيز على بلاغة التعبير القرآني في الموضوع الذي يخدم هدف السورة، أو محورًا من محاورها.
٨- بترقيم الآيات وعزوها إلى سورها بعد الآية مباشرة، وليس في الهوامش السفلية.
٩- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، مع بيان درجة صحتها من خلال حكم العلماء عليها.

١٠- عزو الأحاديث إلى مصادرها بالإشارة إلى اسم المؤلف، واسم الكتاب، وعنوان الباب، ورقم الحديث، اختصارًا للهوامش.

١١- توثيق الأقوال الواردة في البحث من خلال عزوها إلى مصادرها الأصلية قدر الاستطاعة.

١٢- كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني.

١٣- إثبات المصادر والمراجع في الحاشية على الطريقة التالية:

اسم المصدر والمرجع، اسم المؤلف، (الجزء/والصفحة).

١٤- ترجمة جميع الأعلام في أول موضع يرد ذكرهم فيه، ما عدا الصحابة.

١٥- ترتيب المصادر والمراجع مفهرسة على حروف المعجم حسب أول حرف من المصدر أو المرجع.

هيكل البحث ومحتواه:

يشتمل البحث على (مقدمة وبابين وخاتمة)

المقدمة: وتشتمل على:

- أهمية الموضوع
- سبب اختيار الموضوع
- أهداف البحث
- الدراسات السابقة في الموضوع
- منهج البحث
- هيكل البحث ومحتواه

الباب الأول: التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء مقدمات تعريفية، وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في سورة الأنبياء.

الفصل الأول: سورة الأنبياء: اسمها وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها.

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: اسم سورة الأنبياء.

المبحث الثاني: فضل سورة الأنبياء.

المبحث الثالث: عدد آيات سورة الأنبياء واختلاف العلماء في ذلك.

المبحث الرابع: تاريخ نزول سورة الأنبياء.

الفصل الثاني: مكي سورة الأنبياء ومدنيها ومناسبتها لما قبلها.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المكي والمدني في سورة الأنبياء.

المبحث الثاني: مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها وما بعدها.

الفصل الثالث: أسباب نزول سورة الأنبياء ومقاصدها ووجه اختصاصها بما اختصت به.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في سورة الأنبياء.

المبحث الثاني: مقاصد سورة الأنبياء.

المبحث الثالث: وجه اختصاص سورة الأنبياء بما اختصت به.

الباب الثاني: التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء دراسة تطبيقية

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مناسبات سورة الأنبياء.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها.

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.

المبحث الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

الفصل الثاني: موضوعات سورة الأنبياء وتناسقها

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

المبحث الثاني: تقرير البعث ووحدانية الله تعالى.

المبحث الثالث: إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.

المبحث الرابع: بيان عاقبة المؤمنين والكافرين .

الفصل الثالث: تفسير آيات سورة الأنبياء في ضوء تناسقها الموضوعي.

الخاتمة

وتشتمل على:

١. النتائج الكلية للدراسة.

٢. التوصيات.

ثم الفهارس، وتشتمل على:

١. فهرس الآيات القرآنية.

٢. فهرس الأحاديث والآثار.

٣. فهرس المصادر والمراجع.

٤. فهرس الأعلام.

٥. فهرس الموضوعات.

والحمد لله الذي وفق وأعان، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان.

الباب الأول

التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء

مقدمات تعريفية

ويحتوي على تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: اسم سورة الأنبياء وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها.

الفصل الثاني: مكي سورة الأنبياء ومدنيها ومناسبتها لما قبلها واختصاصها بما اختصت به.

الفصل الثالث: أسباب نزول سورة الأنبياء ومقاصدها.

التمهيد

التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة

التمهيد

قبل الكلام عن سورة الأنبياء، والتناسق الموضوعي فيها، يحسن أن أعرّف (التناسق الموضوعي في السورة) من من خلال تعريف أجزاء هذا المصطلح أولا ، ثم بتعريف المصطلح نفسه، وذلك على النحو التالي:

أولا: التعريف بأجزاء مصطلح (التناسق الموضوعي في السورة):

١. تعريف التناسق:

التناسق: تفاعل من "(نسق)، والنون والسين والقاف أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء. وكلامٌ نَسَقٌ: جاءَ على نظامٍ واحد قد عُطِف بعضه على بعض. وأصله قولهم: ثَغْرٌ نَسَق، إذا كانت الأسنان متناسقةً متساوية. وخَرَزٌ نَسَق: منظَّم"[١].

يقال: "نَسَقْتُه نَسْقاً، ونَسَّقْتُه تَنْسِيْقا. وانْتَسَقَتِ الأشياءُ وتناسَقَت"[٢].

مما سبق يتبين أن معنى التناسُق: انتظام الأشياء على نظام واحد، وتناسق الكلام: انتظامه، واتصال بعضه ببعض، مع حسن الترتيب.[٣]

٢. تعريف الموضوع:

لغة: من "الوضع ضد الرفع، يقال وضع الشيء من يده يضعه وضعا وموضوعا: إذا ألقاه"[٤]. "ووضع الشيء إلى الأرض: أنزله، ووضع الشيء في المكان: أثبته فيه".[٥] فالموضوع صفة معينة ثابتة.

وهو في اصطلاح اللغة: "المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه"[٦].

والموضوع الذي نعنيه عند الحديث عن التفسير الموضوعي: القضية التي عالجتها الآية القرآنية[٧].

---

(١)مقاييس اللغة لابن فارس (٥ / ٤٢٠).

(٢) المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد (٥/ ٢٩٢).

(٣) ينظر: التناسق الموضوعي في سورة الأنفال، بدر الذيابي (٢٦).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٨ / ٣٩٦).

(٥) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، (١٠٨٢).

(٦) المصدر السابق، وينظر: التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، أ. د. زياد الدغامين (١٩).

(٧) عرّف الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد الموضوع بأنه: "القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد أو الغاية الواحدة"(المدخل إلى التفسير الموضوعي- د. عبد الستار فتح الله سعيد، (٢٠) وهذا التعريف ينطبق على الموضوع عند الحديث عن التفسير الموضوعي لموضوع من موضوعات القرآن، ولا ينطبق على التفسير الموضوعي لسورة من سور القرآن، الذي هو موضوع هذا البحث.

٣. **تعريف السورة:**

لغة: كل منزلة ورتبة من البناء، وسميت سورة القرآن بهذا الاسم لأنها جزء من القرآن الكريم.

وتطلق السورة أيضا على المنزلة العالية، وسورة القرآن ذات شرف ورفعة لأنها كلام الله تعالى.

ويمكن القول إن تسميتها بالسورة مأخوذ من سور المدينة الذي يحيط ببيوتها، كما تحيط السورة القرآنية بآياتها، وهي حصن لحاملها من الضلال والشبهات بإذن الله. [١]

اصطلاحا:

" قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات"

وهي " الطائفة المترجمة توقيفا" أي الطائفة من آيات القرآن المسماة باسم توقيفي من النبيﷺ.[٢]

ثانيا: تعريف (التناسق الموضوعي في السورة):

بناء على تعريف أجزاء المصطلح يمكن أن نعرف مصطلح التناسق الموضوعي بأنه:

انتظام موضوعات السورة والقضايا التي عالجتها في نظام واحد.

وهو أعم من التناسب، فالتناسب يكون بين الآيات والألفاظ، ويكون أيضا بين السور، أما التناسق فيكون في نظم موضوعات السورة الواحدة. وهو غير الوحدة الموضوعية، لأن الوحدة الموضوعية تبحث عن موضوع واحد يجمع كل آيات السورة.[٣]

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٤ / ٣٨٤)، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي(١/ ١٤٧)، مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (٣٤٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٤٨)

(٣) ينظر: التناسق الموضوعي في سورة الأنفال (٣٠)

الفصل الأول:

اسم سورة الأنبياء وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: اسم سورة الأنبياء

المبحث الثاني: فضل سورة الأنبياء

المبحث الثالث: عدد آيات سورة الأنبياء واختلاف العلماء في ذلك.

المبحث الرابع: تاريخ نزول سورة الأنبياء.

المبحث الأول

اسم سورة الأنبياء

المبحث الأول

اسم سورة الأنبياء

اسم السورة علم عليها، وهو الذي يميزها عن غيرها، ولئن تعددت أسماء بعض السور فإنه لا تخلو سورة من اسم لها سماها به رسول الله ﷺ، قال الطبري[١]: "لسور القرآن أسماء سماها بها رسول الله ﷺ " [٢]. وقال السيوطي: "قد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار" [٣]. وقال الطاهر ابن عاشور: "أما أسماء السور فقد جعلت لها من عهد نزول الوحي" [٤]. فأسماء السور توقيفية، وهذا أرجح من القول بأنها اجتهادية. وأما سورة الأنبياء فلم يعرف لها اسم غير هذا الاسم (سورة الأنبياء)، وهو الاسم الذي عرفت به منذ عهد الصحابة، فقد روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي" [٥]. فعرفت بـ "سورة الأنبياء". قال الطاهر ابن عاشور في تفسيره: "سماها السلف سورة الأنبياء... ولا يعرف لها اسم غير ذلك" [٦].

وسميت بهذا الاسم لكونها اشتملت على ذكر عدد كبير من الأنبياء يصل إلى ستة عشر نبيا [٧]، وليس في القرآن الكريم سورة احتوت على هذا العدد من الأنبياء إلا سورة الأنعام التي ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيا، ولكن سورة الأنعام لم يكن ذكر الأنبياء غرضا أساسيا من أغراضها كسورة الأنبياء، ولعل هذا هو سبب اختصاص سورة الأنبياء بهذه التسمية، حيث إن أغراضها تدور حول التوحيد وإثبات البعث الذي أنكره أعداء الأنبياء، وتقديم القدوة والسلوى للداعية إذا وجد صدودًا من المدعوين أن يستمر على دعوته ولا ييأس، وأن لا يحزن لرد بعض الناس دعوته، وأن يصبر على أعباء الدعوة الثقيلة كما صبر الأنبياء، ويصبر على الابتلاء له

---

(١) الطبري (٢٢٤- ٣١٠هـ) :محمد بن جرير بن يزيد الطبري ،كان إماما في عدد من العلوم منها الحديث والفقه والتاريخ و التفسير، حيث صنف فيه كتابه: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. (طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٩٥- ٩٦))،(وفيات الأعيان (٤ / ١٩١))

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١ / ١٠٠).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١ / ١٤٨).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٥).

(٥)صحيح البخاري، ص ٩٩٩، ح٤٧٣٩، كتاب التفسير: سورة الأنبياء.

(٦)التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧ / ٥).

(٧) هم (حسب ترتيب ذكرهم في السورة): موسى وهارون، إبراهيم، إسحاق ويعقوب، لوط، نوح، داود وسليمان، أيوب، إسماعيل وإدريس وذا الكفل، يونس (ذو النون)، زكريا، يحيى، عيسى (ولم يذكر اسمه بل نسب إلى أمه) عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

بالخير والشر، سائرا على نهج هؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله عز وجل، فذكر الأنبياء في سورة الأنبياء جاء في صلب موضوع السورة، لذلك اختصت بهذه التسمية.

بالإضافة إلى أن "اختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية" [1]

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ٥)

المبحث الثاني

فضل سورة الأنبياء

المبحث الثاني

فضـل سورة الأنبياء

إن مـن أعظـم نعـم الله علـى عبـاده القـرآن الكـريم، الـذي أنزلـه الله لإخـراج النـاس مـن الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سورة إبراهيم: ١]، فالقرآن كله هدى، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]، فهو هدى يهدي الله عز وجل به الناسَ إلى الحق، وآياته البينات واضحات في الدلالة على الحق، وهو فرقان يفرق بين الحق والباطل(١) وبين الهدى والضلال وبين النور والظلمات. قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ١]. وهو أحسن الحديث، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [سورة الزمر: ٢٣] كيف لا وهو كلام الله جل وعلا، فهو عدل وكمال في ما أمر به وفيما نهى عنه، وصدق فيما أخبر به، ليس فيه أي نقص ولا قصور ولا خلل مما يعتري عمل البشر، بل هو كامل في أعلى درجات الكمال، لأنه صفة الله عز وجل الكامل كمالًا مطلقا من كل وجه سبحانه وتعالى.

وإذا كانت آيات معينة أو سور معينة اختصت بمزيد فضل دل عليه نص شرعي، فإن هذا لا يدل على أن غيرها من الآيات –مما لم يرد نص في فضله بخصوصه– ليس فاضلا، بل كل القرآن كما تقرر فاضل لأنه كلام الله عزوجل، لكن بعضه يزيد على بعض في الفضل لسبب.

ومن المعلوم أن من أكثر ما دخله الأحاديث الضعيفة والموضوعة: فضائل السور، حيث وضعت أحاديث كثيرة في هذا الشأن ونسبت كذبا إلى رسول الله ﷺ. وفيما يتعلق بسورة الأنبياء التي نحن بصددها فإني لم أقف على حديث يصح عن رسول الله ﷺ في فضلها، لكنها فاضلة لكونها من القرآن، وإن كان بعض المفسرين ذكر أحاديث ضعيفة وموضوعة في هذا الباب، منها الحديث المنسوب إلى أبي بن كعب رضي الله عنه، وقد حكم علماء الحديث عليه بالوضع(٢)، وقد أعرضت عنه لعدم صحته عن رسول الله ﷺ.

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٣/ ٤٤٨).

(٢) ينظر: الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٢٣٩)، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، (١٣/ ٣٥٤).

على أنه وإن كان لم يصح في فضل سورة الأنبياء بخصوصها حديث عن النبي ﷺ، فقد ورد عن بعض الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على مزيد فضل لها، من ذلك حديث ابن مسعود المتقدم قال: "بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي"[1]. فقوله "العتاق" جمع عتيق، ومادة عتق تجمع معنى الكرم، والقدم[2]. وأما قوله: "وهن من تلادي" فالتلاد والتالد: القديم[3]، فهذه السور تجمع بين كونها من أوائل ما تعلمه ابن مسعود رضي الله عنه، وكونها سورا فاضلة، قال ابن حجر[4] رحمه الله: "ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن، وأن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم"[5].

(١) تقدم تخريجه ص٢١

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس، (٤/ ٢١٩).

(٣) ينظر: الصحاح في اللغة، للجوهري، (٢/ ٤٥٠)، لسان العرب لابن منظور (٣/ ٩٩) ، القاموس المحيط للفيروز ابادي (١٥٨).

(٤) ابن حجر: (٧٧٣- ٨٥٢هـ) أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، برع في الحديث وتقدم في جميع شؤونه، وصنف فيه كتبا كثيرة، أبرزها: فتح الباري شرح صحيح البخاري. (ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي(١١٧)

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

المبحث الثالث

عدد آيات سورة الأنبياء

المبحث الثالث

عدد آيات سورة الأنبياء واختلاف العلماء في ذلك

قبل الحديث عن عدد آيات السورة لابد من بيان معنى الآية في اللغة، فالآية "تطلق في لسان اللغة بإطلاقات:

أولها: المعجزة. ومنه قوله تعالى: ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢١١] أي معجزة واضحة.

ثانيها: العلامة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨] أي علامة ملكه.

ثالثها: العبرة. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨]. أي عبرة لمن يعتبر.

رابعها: الأمر العجيب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٠]

خامسها: الجماعة. ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم. والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئا.

سادسها: البرهان والدليل نحو قوله جل ذكره: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [سورة الروم: ٢٢]" [(١)].

وسميت آية ولم تسم علامة لأن لفظ الآية يشمل المعاني السابقة بخلاف لفظ العلامة. والآية أقوى من العلامة، فالآية هي العلامة الثابتة، من قولهم: تأييت بالمكان إذا تحبست به وتثبت[(٢)].

وأما الآية من القرآن فهي "طائفة من حروف وكلمات القرآن ذات بداية ونهاية مندرجة في سورة من القرآن الكريم" [(٣)].

والترابط بين المعنى اللغوي للآية والمعنى الاصطلاحي ظاهر، لأن الآية القرآنية علامة على صدق من جاء بها ﷺ، وهي علامة على عجز المتحدى بها وهم الكفار، وهي أيضا علامة

---

(١)مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (٣٣١- ٣٣٢) وينظر: مقاييس اللغة (١٦٨).

(٢) ينظر: الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري (٣٨٠).

(٣) المنتقى في علوم القرآن، أ. د. طه عابدين طه (١/ ١٦٦).

على انقطاع الكلام قبلها وبعدها[1]، وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السمو والإعجاز، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته، وعلى صدق رسوله في رسالته [2].

وقد اعتنى العلماء بمعرفة عدد آيات السور حتى صار علما مستقلا، وذلك من عنايتهم الفائقة بكتاب الله تعالى وبكل العلوم المتعلقة به. فأجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف ومئتا آية، واختلفوا فيما زاد على ذلك [3]، للاختلاف في عدد آيات بعض السور، وهذا الاختلاف على ستة مذاهب، هي:

- مذهب أهل المدينة الأول، وعدد آيات القرآن فيه: ستة آلاف ومئتان وسبع عشرة آية.
- مذهب أهل المدينة الأخير، وعدد آيات القرآن فيه: ستة آلاف ومئتان وأربع عشرة آية.
- مذهب أهل مكة وعدد آيات القرآن فيه: ستة آلاف ومئتان وست عشرة آية، وقيل: وعشر آيات.
- مذهب أهل الكوفة، وعدد آيات القرآن فيه: ستة آلاف ومئتان وست وثلاثون آية.
- مذهب أهل البصرة، وعدد آيات القرآن فيه ستة آلاف ومئتان وأربع آيات.
- مذهب أهل الشام وعدد آيات القرآن فيه: ستة آلاف ومئتان وعشر آيات[4].

وهذا الاختلاف في عد الآي لا ينفي أن معرفة عدد آيات كل سورة أمر توقيفي يرجع فيه إلى الرواية عن النبي ﷺ، فإن سبب هذا الاختلاف ليس الاجتهاد ولا القياس، بل السبب كما ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ إذا قرأ السورة وقف على رأس الآية ليُعلم موضعه، ثم إذا قرأها مرة أخرى ربما يصل بين الآيتين بما يتم به المعنى، ولا يقف على خاتمة الآية لأنها قد عُلمت من قبل، فيظن بعض السامعين الآيتين آية واحدة [5].

وسورة الأنبياء من السور التي وقع الاختلاف في عدد آياتها، فقيل: مئة وإحدى عشرة آية، وقيل: مئة واثنتا عشرة، قاله الكوفيون حيث إنهم عدوا قوله تعالى ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٨٨).
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (٣٣٢).
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٨٨).
(٤) ينظر: البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني (٦٧).
(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٨٩).

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٦٦] رأس آية [1]، والباقون لم يعدوها رأس آية فصارت عندهم مئة وإحدى عشرة آية.

(١) ينظر: البيان في عد آي القرآن للداني (١٨٧).

المبحث الرابع

تاريخ نزول سورة الأنبياء

المبحث الرابع
تاريخ نزول سورة الأنبياء

إن أغلب سور القرآن لم يحفظ وقت نزولها على وجه الدقة والتحديد، ولذا فإن الباحث يجتهد في استنتاج الوقت الذي نزلت فيه السورة على وجه التقريب وذلك من خلال تتبع أسباب النزول الواردة في السورة، أو الحوادث التي ارتبطت بنزول السورة، أو نزولها قبل أو بعد سورة معينة. وكذلك يمكن استنتاج وقت النزول من خلال الأحكام والأوامر الواردة في السورة بحيث يكون قد عُلم من خلال الحديث أو السيرة أن هذا الحكم قد شرع سنة كذا، فيُعلم بذلك أن هذه السورة المشتملة على هذا الحكم نزلت في تلك السنة، ولعل هذا ينطبق على السور المدنية التي اشتملت على أحكام وتشريعات، أما السور المكية —مثل سورة الأنبياء– فأغلب موضوعاتها تدور حول إثبات العقيدة الصحيحة ومناقشة المنكرين لها، وكان هذا خلال فترة الدعوة المكية من أولها إلى آخرها، ولذلك فإن التأمل في موضوعات السورة قد لا يوصل إلى معرفة وقت نزول السورة سوى أنها مكية نزلت قبل الهجرة، وإذا أردنا المزيد من التحديد — وهو مطلوب– فإن الروايات الواردة عن السلف في ترتيب نزول القرآن قد تعطي صورة عامة عن هذا الوقت، حيث كانت سورة الأنبياء هي السورة الحادية والسبعين، نزلت بعد سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ونزل بعدها سورة المؤمنون، ونزل بعد سورة الأنبياء اثنتا عشرة سورة من السور المكية [1]، فعلم أن نزول سورة الأنبياء لم يكن في بداية البعثة، كما قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: "هي السورة الحادية والسبعون في ترتيب النزول... فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة" [2]. فهي من أواخر السور المكية. إلا أنها من أوائل ما نزل من القرآن بالنظر إلى عموم القرآن مكيِّهِ ومدنيِّهِ. وعلى هذا يفهم قول ابن مسعود ﷺ عن سورة الأنبياء إنها من تلاده، والتلاد القديم كما تقدم.

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (١/ ١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٦).

الفصل الثاني

مكي سورة الأنبياء ومدنيها ومناسبتها لما قبلها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المكي والمدني في سورة الأنبياء.

المبحث الثاني: مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها وما بعدها.

المبحث الأول

المكي والمدني في سورة الأنبياء

المبحث الأول

المكي والمدني في سورة الأنبياء

إن دراسة موضوعية لسورة من سور القرآن لا يمكن أن تغفل الحديث عن كون السورة مكية أو مدنية، او بعضها مكي وبعضها مدني. وهل هناك اختلاف في ذلك بين العلماء، إلى غير ذلك مما يتعلق بمكي السورة ومدنيها.

وللعلماء في تحديد المكي والمدني اتجاهات لعل أرجحها والله أعلم أن المكي ما نزل قبل الهجرة ولو بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو في مكة، وذلك لأن المتأمل للآيات النازلة قبل الهجرة –ولو نزلت خارج مكة– يجد خصائصها متشابهة تشابها كبيرا، والنازلة بعد الهجرة –ولو كانت في مكة– يجد أسلوبها أسلوب الآيات المدنية، ويختلف عن أسلوب الآيات المكية.

ومما يجعل هذا القول مقدما: أنه يجمع الآيات فلا تبقى آيات لا مكية ولا مدنية كما هو الحال عند القائلين إن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، فهو تعريف ضابط وحاصر[1].

ولمعرفة المكي والمدني أهمية كبيرة، وذلك أنه لا يكمل فهم السورة إذا لم يعرف في أي مرحلة من مراحل الدعوة نزلت: في بداية الدعوة، فتكون الأحكام فيها مناسبة لحال المسلمين أول الإسلام، أم بعد الهجرة وقبل الانتشار الكامل للإسلام في جزيرة العرب؟ أم بعد فتح مكة ودخول أغلب العرب في الإسلام وخضوعهم لسلطانه. ومعرفة حال الناس المخاطَبين بالآيات يجنب المفسر الخطأ في فهم معنى الآية، فلا يحكم بآية منسوخة، ولا يشكل عليه ما ظاهره التعارض بين آيات القرآن، فإذا عرف أن إحداهما مكية والأخرى مدنية فإنه يغلب على ظنه أن المدنية ناسخة، وهذا من الفوائد التي ذكرها العلماء لمعرفة المكي والمدني. [2]

ولمعرفة هذا العلم فوائد أخرى منها: تعلم أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله، من مراعاة أحوال المخاطبين، فالقرآن المكي كان موجها إلى تصحيح العقيدة وتطهير عقائد الناس مما أفسدها، وهذا يبين للداعية إلى هذا الدين أن أول ما ينبغي دعوة الناس إليه هو تصحيح العقيدة[3].

---

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١٨٧).

(٢) ينظر: المصدر السابق (١٨٨).

(٣) ينظر: مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، (٥٩).

وأسلوب القرآن المكي فيه الجزالة والقوة في الخطاب مع الإيجاز، أما القرآن المدني فأسلوبه أكثر سهولة وأكثر إطنابا؛[1] وذلك لأنه يحتوي على الشرائع التي يحتاج الناس إلى التفصيل فيها، وهذا أيضا يعلم الداعية متى يوجز ومتى يفصل، ويعلمه أيضا مراعاة أحوال المخاطبين، فالمخاطَب المعاند ليس كالمخاطَب المؤمن المقتنع الذي يحتاج إلى بعض التذكير، وهكذا، فالمتأمل لأساليب القرآن المكي والمدني يجد فرقا بينهما، وهذا الفرق مناسب لأحوال المخاطبين كما سبق.

ومعرفة السور المكية والمدنية يبين للمفسر الحكمة الإلهية في التدرج في التشريع وما فيه من الحكمة ومراعاة أحوال المسلمين[2].

ومما يجدر التنبيه عليه أن المكي والمدني يعرف بالنقل عن الصحابة والتابعين، فإذا نُقل إلينا شيء عنهم فحسبنا به، لأنه "إنما يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين"[3]. أما ما لم يصل إلينا حكمهم عليه هل هو مكي أو مدني فإن العلماء اجتهدوا في معرفة ذلك من خلال تتبع خصائص كل من القرآن المكي والمدني، فما غلبت عليه خصائص القرآن المكي رجحوا أنه مكي، وما غلبت عليه خصائص القرآن المدني رجحوا أنه مدني[4].

وسورة الأنبياء أجمعت الروايات المروية عن الصحابة والتابعين أنها مكية، فقد أورد السيوطي رحمه الله في كتابه (الإتقان) روايات متعددة عن عدد من التابعين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سورة الأنبياء مكية، ولم يُستثن منها شيء [5].

وكل كتب التفسير التي اطلعت عليها ذكرت أنها مكية، ونقل الإجماع على مكيتها عدد من المفسرين منهم القرطبي[6] وأبو حيان، وابن الجوزي[7].

قال القرطبي: "سورة الأنبياء مكية في قول الجميع"[8].

وقال أبو حيان: "هذه السورة مكية بلا خلاف"[1].

---

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١٩٦- ١٩٧)

(٢) المصدر السابق (١٨٨)

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١ / ٣٥)

(٤) ينظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (٦٠)

(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٢- ١٤)

(٦) أبو عبد الله القرطبي: (ت٦٧١هـ) محمد بن أحمد بن أبي فرح القرطبي. إمام متفنن، صنف في عدد من العلوم، من كتبه: الجامع لأحكام القرآن الكريم. (طبقات المفسرين للسيوطي (ص٩٢))

(٧) ابن الجوزي: (٥١٠- ٥٩٧هـ) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي. فقيه واعظ محدّث، صنف في عدد من العلوم، من مصنفاته: زاد المسير في علم التفسير. (وفيات الأعيان (٣ / ١٤٢))

(٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (١١/ ٢٦٦).

وقال ابن الجوزي: "وهي مكية باجماعهم من غير خلاف نعلمه" [٢].

ويؤيد كونها مكية الأثر الذي تقدم عن ابن مسعود أنه عدها "من العتاق الأول" وابن مسعود ﷺ من أول من أسلم من الصحابة، وإذا كانت السورة من أول ما تعلمه ﷺ فهي من أول ما نزل فتكون مكية.

إلا أن السيوطي رحمه الله ذكر أن قوله تعالى﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٤]. مدني، ولم ينسبه إلى قائل، ولم يذكر عليه دليلا، وحيث لا دليل على استثناء شيء من السورة فهي كلها مكية. كما أن الزركشي [٣] رحمه الله لم يذكر سورة الأنبياء في السور المكية التي فيها آيات مدنية.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٧/ ٤٠٦).

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٥/ ٣٣٨)

(٣) الزركشي(٧٤٥- ٧٩٤هـ) بدر الدين أبو عبد الله الزركشي المصري، كان فقيها أصوليا أديبا، صنف في هذه العلوم وغيرها، ومن تصانيفه: البرهان في علوم القرآن. (طبقات الشافعية (٣/ ١٦٧- ١٦٨))

المبحث الثاني

مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

ويشتمل على تمهيد ومطلبين:

المطلب الأول: مناسبة سورة الأنبياء لسورة طه التي قبلها.

المطلب الثاني: مناسبة سورة الأنبياء لسورة الحج التي بعدها.

التمهيد

تعريف المناسبة لغة واصطلاحا

قبل البدء ببيان أوجه المناسبات بين سورة الأنبياء وما قبلها وما بعدها من السور، لابد من بيان المراد بالمناسبة.

أولا: تعريف المناسبة في اللغة:

"النون والسين والباء كلمةٌ واحدة قياسُها اتِّصال شيءٍ بشيء. منه النّسَب، سمِّي لاتِّصاله وللاتِّصالِ به" (١)

ويقال: "ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة" (٢)

"وفُلان يُنَاسِبُ فلانا فهو نَسِيبُهُ أي قريبه وبينهما مُنَاسَبَةٌ أي مُشاركة" (٣)

فالمناسبة الاتصال مع المشاكلة والمقاربة.

ثانيا: تعريف المناسبة في الاصطلاح:

عرّفت المناسبة في الاصطلاح بأنها: "وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة" (٤)

---

(١)مقاييس اللغة لابن فارس (٥ / ٤٢٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١ / ٧٥٥).

(٣) مختار الصحاح للرازي (١ / ٦٨٨).

(٤) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١ / ٩٦).

المطلب الأول

مناسبة سورة الأنبياء لسورة طه التي قبلها

من المواضيع البارزة في السور المكية: تسلية النبي ﷺ عن أذى المشركين له وتكذيبهم رسالته، وذلك بأساليب عدة؛ من ذكر تكذيب الأمم السابقة لأنبيائهم وبيان أن العاقبة للأنبياء، وذكر أنواع الابتلاء التي ابتلي بها أنبياء الله عز وجل، والتأكيد على أن الحق منصور على الباطل مهما علا الباطل وتجبر، وغيرها من الأساليب. وقد اشتملت سورة طه على شيء من ذلك، في قصة موسى عليه السلام وما لقيه من البلاء، وفي هذا تسلية له ﷺ عن تكذيب قومه له. وجاءت سورة الأنبياء متممة لذلك فذُكر فيها قصص كثير من الأنبياء وصبرهم على البلاء [1].

ومن مقاصد سورة طه التنويه بشأن القرآن وأنه نعمة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين به، وبيان جزائهم في الآخرة، وبيان جزاء المعرض عن القرآن وعن الإيمان به والاتعاظ بما فيه، ولذلك ناسب أن تبدأ سورة الأنبياء بالإخبار باقتراب يوم القيامة الذي يجازى فيه كل فريق بعمله، وبذم المعرضين الغافلين عن الذكر والقرآن الذي جاء به النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢][2].

وفي آخر سورة طه الإشارة إلى أن الدنيا زائلة لا ينبغي الالتفات إليها ولا التعلق بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣١]؛ والآخرة هي التي ينبغي الاهتمام بأمرها والاستعداد لها لأنها آتية لا محالة، بل هي قريبة، كما جاء في مطلع سورة الأنبياء ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: ١][3].

ولما ختمت سورة طه بأمر الرسول ﷺ أن يقول للمشركين ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣٥]، وكان المشركون ينفون وجود يوم يحصل فيه البعث والحساب و يجادلون فيه، ويتهمون الرسول ﷺ بالكذب في دعواه؛ جاء افتتاح سورة الأنبياء بالتأكيد على أن ذلك اليوم – يوم القيامة الذي يتبين فيه أتم البيان

---

(١) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر الغرناطي(٢٥٥)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٥/ ٦٣- ٦٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٧/ ٤٠٣)

(٣) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر الغرناطي(٢٥٥)

من صاحب الصراط السوي ومن اهتدى، ويتميز فيه أكمل تمييز المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة اللَّه تعالى، وعلى المبطل من أنواع إهانته- هو يوم متحقق الوقوع، بل هو قريب فكل آت قريب[1].

(١) ينظر: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (٢٢ / ١١٧)، نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٦٤).

المطلب الثاني
مناسبة سورة الأنبياء لسورة الحج التي بعدها

بعد أن تقرر في سورة الأنبياء أن البعث والحساب حق، وبعد أن رغَّبت الآيات في الإيمان بذكر جزاء المؤمنين، ورهبت وخوفت من الكفر والتكذيب بذكر جزاء المكذبين، وأن مصيرهم العذاب والخلود في النار، وذكرت طرفا من أهوال يوم القيامة، جاءت السورة التالية –سورة الحج– بمزيد بيان لعِظم أمر الساعة وهول شأنها، ودالَّة على ما ينجي من هول يوم القيامة الذي هو شيء عظيم، وهو تقوى الله فقال الله تعالى في مطلع سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة الحج: ١][1].

ولما كانت سورة الأنبياء مشتملة على مجادلةِ المنكرين للبعث، وإقامةِ الحجج على إمكانه، سارت سورة الحج في مطلعها على نفس الموضوع لشدة أهميته، فورد فيها ذكر الدليل على البعث بذكر الخلق الأول للإنسان، ومراحله، والتدرج فيها، وذلك لا يكون إلا من حكيم قدير سبحانه وتعالى. ثم ذُكر الاستدلال على البعث بإحياء الأرض بعد موتها [2]. فالسورتان تسيران معا في إثبات البعث والحساب، ومناقشة ومجادلة المنكرين له، وتحذيرهم عاقبة هذا التكذيب، وتخويفهم عقاب الله.

---

(١) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر الغرناطي (٢٥٦)، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٣٤٥)، نظم الدرر للبقاعي(٥/ ١٣٠)

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥/ ١٣٠)

المبحث الثالث

اختصاص سورة الأنبياء بما اختصت به.

أولا: أبرز ما اختصت به سورة الأنبياء من موضوعات:

١. ذكر الرتق والفتق للسماء والأرض. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾

٢. بيان أن الماء أصل كل كائن حي. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

٣. قصة حكم داود وسليمان عليهما السلام في الحرث. قال تعالى ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

٤. ذكر دعاء يونس عليه السلام، وهو دعاء الكرب. في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

٥. تسفيه الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وبيان ضعف تلك المعبودات وأنها لا تدفع عن نفسها، فهي تلقى في النار مع عابديها. قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ثانيا: أبرز ما اختصت به سورة الأنبياء من ألفاظ:

١. لفظ (القصم) في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾

٢. لفظ (الخمود) في قوله عز وجل: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

٣. وجاء في قوله تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ كلمتان لم تذكرا في موضع آخر من القرآن الكريم، وهي: (القذف، الدمغ)

٤. لفظ (الاستحسار) في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

٥. لفظ: (الرتق والفتق) في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

٦. لفظ (نفحة) في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

٧. لفظ (النفش) في قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

٨. لفظ (النون) وهو الحوت. في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

٩. لفظ (حدب، ينسلون) في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

١٠. لفظ (شاخصة) في قوله تعالى: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

١١. لفظ (حصب) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

١٢. لفظ (الحسيس) في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

١٣. لفظ (الطي، السجل) في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

الفصل الثالث

أسباب النزول في سورة الأنبياء ومقاصدها

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في سورة الأنبياء.

المبحث الثاني: مقاصد سورة الأنبياء.

المبحث الأول

أسباب النزول الواردة في سورة الأنبياء

المبحث الأول
أسباب النزول الواردة في سورة الأنبياء

إن معرفة سبب نزول الآية من أهم علوم القرآن المرتبطة ارتباطا وثيقا بفهم الآية وبتفسيرها، وقد كان السلف رحمهم الله يحرصون على معرفتها، ويعدون العلم بها منقبة يفخر الواحد منهم بها، فقد قال ابن مسعودﷺ: " والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت"(١)، فقوله: "فيما أنزلت" يشمل موضوع الآية وما تعالجه، ويشمل كذلك سبب نزولها.

ولمعرفة أسباب النزول فوائد عديدة، فهي تعين على فهم الآية فهما صحيحا، وتزيل اللبس، مثل سبب نزول قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٩٣] فقد فهم بعض الصحابة الآية على غير وجهها حتى صحح لهم الفهم عمر ﷺ الله عنه في القصة المعروفة(٢). ولهذا قال الواحدي (٣) عن الأسباب: "هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها" (٤). وقال ابن تيمية(١): "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب" (٢).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ص١٠٨٩، ح ٥٠٠٢.

(٢) السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: حسن شلبي (٥/ ١٣٨)، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. باب إقامة الحد على من شرب الخمر على التأويل: عن ابن عباس ، أن قدامة بن مظعون ، شرب الخمر بالبحرين فشهد عليه ثم سئل فأقر أنه شربه ، فقال له عمر بن الخطاب : ما حملك على ذلك ، فقال : لأن الله يقول : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (المائدة: ٩٣) ، وأنا منهم أي من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بدر ، وأهل أحد ، فقال للقوم: أجيبوا الرجل فسكتوا ، فقال لابن عباس : أجبه ، فقال : إنما أنزلها عذرا لمن شربها من الماضين قبل أن تحرم وأنزل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠)، حجة على الباقين. وسبب النزول في صحيح البخاري: كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق، ص٤٧٧، ح٢٤٦٤

(٣) الواحدي: (ت٤٦٨هـ) أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد الواحدي، كان أستاذ عصره في النحو والتفسير، من كتبه: أسباب نزول القرآن. (وفيات الأعيان (٣ / ٣٠٣))

(٤) أسباب النزول لأبي الحسن للواحدي، (٤).

ومن فوائد هذا العلم: معرفة الحكمة من تشريع الحكم، والوقوف على رحمة الله تعالى بعباده وتيسيره عليهم في كثير من هذه التشريعات. مثل سبب نزول آية التيمم، وسبب نزول آية اللعان وغيرها.

ولما كان علم أساب النزول معتمدا على الرواية ولا مجال للاجتهاد فيه، حرص العلماء على نقل الروايات عن الصحابة الذين شهدوا نزول الآيات وعلموا أسباب نزول ما ارتبط نزوله بسبب، وكان كثير من هذه المرويات مبثوثا في كتب التفسير المتقدمة التي كانت تعنى بالتفسير بالمأثور بشدة، وكما هي العادة في أول عصر التدوين كان العالم يذكر الرواية بسندها ولا يحكم على صحتها في الغالب لأن من أسند فقد أحال. ولأن أسباب النزول من أهم العلوم المعينة على فهم الآية فإنه ينبغي التأكد من صحة السبب قبل الاعتماد عليه في تفسير الآية، ولا بد كذلك من أن يكون السبب المذكور صريحا في أن الآية نزلت بسبب تلك الحادثة حتى يصدق عليه أنه سبب نزول، أما إذا لم يكن السبب صريحا فإنه يعد من قبيل التفسير لا سببا للنزول، ويرجع في تفصيل ذلك إلى كتب علوم القرآن.

وقد ورد في كتب التفسير أسباب لنزول بعض الآيات في سورة الأنبياء، وبيانها فيما يلي:

١. في قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾ [سورة الأنبياء: ٦]روى الطبري في تفسيره بسنده عن قتادة[٣]، عند قوله عز وجل: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ ﴾ [سورة الإسراء: ٥٩] قال: قال أهل مكة لنبي الله ﷺ: إن كان ما تقول حقا، ويسرك أن نؤمن، فحول لنا الصفا ذهبا. فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك، قال: ((**بل أستأني بقومي**))، فأنزل الله: ﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ

---

(١) ابن تيمية: (٦٦١- ٧٢٨هـ) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، فقيه مجتهد، حافظ محدث، مفسر، أصولي. له مصنفات كثيرة، منها: كتاب الإيمان. (ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/ ٣٩١، ٤٩٣- ٤٩٤، ٥٢٥)، وينظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٣٩).

(٣) قتادة (٦٠- ١١٧هـ): قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي، تابعي، كان عالما بالتفسير، وكان من أوعية العلم، و يضرب به المثل في قوة الحفظ. (سير أعلام النبلاء (٩ / ٣٣٢)

ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [سورة الإسراء: ٥٩] وأنزل الله عز وجل ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾ [(١)].

٢. وفي قول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٤]قال السيوطي في لباب النقول: "أخرج ابن المنذر[(٢)] عن ابن جريج[(٣)] قال: نعي إلى النبي ﷺ نفسه فقال: ((**يا رب فمن لأمتي؟**))، فنزلت ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ ﴾ الآية. [سورة الأنبياء: ٣٤]" [(٤)].

٣. في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء:١٠١]أخرج الواحدي في كتابه أسباب النزول بسنده عن ابن عباس قال: آية لا يسألني الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها؟ قال: وما هي؟ قال: لما نزلت ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] (شق على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ فجاء ابن الزبعرى فقال: مالكم؟ قالوا يشتم آلهتنا، قال فما قال؟ قالوا قال: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] (قال: ادعوه لي فلما دعي النبي ﷺ قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله؟ قال: ((**بل لكل من عبد من دون الله**))، فقال ابن الزبعرى: خصمت ورب هذه البنية – يعني الكعبة– ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٤/ ٦٣٦)، وأخرج الطبري بسنده في تفسير سور الإسراء حديثين بمعنى هذا الحديث أحدهما عن سعيد بن جبير عن ابن عباس والآخر عن سعيد بن جبير، لكن لم تذكر في الحديثين آية سورة الأنبياء. (١٧/٤٧٦- ٤٧٧)

(٢) ابن المنذر: (٢٤٢- ٣١٨ هـ)هو أبوبكر محمّد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، إمام مجتهد فقيه عالم بالحديث، صنف في الفقه وفي التفسير(طبقات المفسرين (ص٩١))، وكتابه في التفسير وجد منه أوله إلى سورة النساء والباقي مفقود، (مقدمة محقق تفسير ابن المنذر: ١ / ١٧، ١٨، ٢٤).

(٣) ابن جريج (٨٠-١٥٠هـ) عبدالملك بن عبد العزيز بن جريج الاموي مولاهم (تهذيب التهذيب: ٦/ ٣٥٧، ٣٥٩)

(٤) لباب النقول في أسباب النزول (١ / ١٤٧)، ولم أجد هذه الرواية في كتب ابن المنذر المطبوعة، فلا معتمد لهذه الرواية إلا نقل السيوطي عنه رحمهما الله. وهو لم يذكر سند ابن المنذر إلى ابن جريج ولا نستطيع أن نحكم على الرواية، فأتوقف فيها.

الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيرا، قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠١][1].

هذه الأيات الثلاث هي التي ذكرت أسباب لنزولها في ما وقفت عليه من كتب التفسير وأسباب النزول.

(١) أسباب النزول للواحدي (١ / ٢٠٦) ، وذكر الألباني الحديث في صحيح السيرة النبوية(١٠١- ١٠٢)، وينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل الوادعي (١٣٥-١٣٧)

المبحث الأول

مقاصد سورة الأنبياء

المبحث الثاني
مقاصد سورة الأنبياء

تمهيد

تقدم في مبحث المكي والمدني في السورة أن سورة الأنبياء مكية، نزلت بمكة المكرمة، والمشركون يناصبون رسول الله ﷺ العداء، ويتفننون في التنقص منه ومن دعوته، وفي إيذائه وإيذاء أتباعه، وينوعون الشبهات التي يوردونها لرد ما جاء به. فجاءت سورة الأنبياء لتقرر الإيمان الذي أنكروه، وتدلل عليه بأدلة متعددة، وترد على شبهاتهم التي أثاروها على الرسالة والرسول، وتثبت قلب النبي ﷺ وقلوب أتباعه عن طريق ذكر أخبار الأنبياء السابقين، وكيف أهلك أعداءهم ونصرهم عليهم.

فالسورة كلها في التوحيد والإيمان:

- الإيمان بالله عز وجل
- وبالرسول الذي أرسله
- وبالرسالة التي جاء الرسول بها
- وبالساعة التي يجازى فيها من آمن بالرسالة ومن كذب بها.

ومقاصدها العامة تندرج تحت قضايا الإيمان هذه، وفيما يلي بيان **المقاصد العامة لسورة الأنبياء:**

أولا: مقصد الإيمان بالساعة: وقد ظهر هذا المقصد من خلال عدة أمور، بيانها فيما يلي:

١. تحذير الناس من الغفلة والإعراض عن يوم الحساب والاستعداد له، مع تحقق وقوعه. قال تعالى ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ ﴾ .

٢. ذكر الميزان وتأكيد عدل الله تعالى وأنه لا يظلم أحدا شيئا. ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾.

٣. الإشارة إلى بعض مقدمات يوم القيامة مثل خروج يأجوج ومأجوج، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾ ، وطي السماء ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ ﴾ .

٤. ذكر مصير كل من المؤمنين والكفار في الآخرة.

ثانيا: مقصد الإيمان بالرسول والرسالة: وقد قررت السورة هذا المقصد في النقاط التالية:

١. الرد على الكفار الذين أوردوا الشبهات على رسالة النبي ﷺ ولم يؤمنوا بها، فتارة ينكرون أن يكون النبي بشرا، وتارة يتهمونه بالسحر، وثالثة يزعمون أن ما جاء به أضغاث أحلام، ورابعة أنه اختلقه من عند نفسه ومرة أنه شاعر. ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾... الآيات

٢. إخبار المكذبين المتآمرين على المنكر بأن الله يعلم السر في السماوات والأرض. فهو بما يسرون ويتآمرون عالم، وفي ذلك تخويف وترهيب لهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴾.

٣. بيان أن جميع الرسل السابقين من البشر، وأنهم يأكلون ويشربون ويموتون فالبشر لا يخلدن وهذه سنة الله عز وجل في رسله. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ ، ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾.

٤. تخويف المكذبين ببيان سنة الله فيمن كذب الرسل، حيث أنزل الله بهم العذاب في الدنيا، وعذاب الآخرة أخزى والعياذ بالله. ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ ﴾ الآيات.

٥. ملة الأنبياء واحدة، وربهم واحد. قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

٦. ذكر استهزاء الكفار بالنبي ﷺ وما جاء به وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ ، وتطمين قلب النبي ﷺ، و تخويفهم سنة الله في المستهزئين بالرسل من قبل ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

٧. ذكر قصص الأنبياء مع أممهم وصبرهم، ثم نصر الله لهم، واستجابته دعواتهم.

٨. التنويه بالقرآن وأنه شرف للعرب، فينبغي أن يتبعوه لا أن يردوه ويكفروا به. ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

ثالثا: مقصد إثبات وحدانية الله تعالى: وبيان ذلك في النقاط التالية:

١. نفي العبث عن الخالق سبحانه في خلق الكون، فخالقه سبحانه منزه عن العبث واللهو، وقد خلقه لحكمة بالغة. قال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

٢. مجادلة المنكرين للتوحيد بإثبات انفراده جل وعلا بالخلق والتدبير للكون، وأن من هذا وصفه هو وحده المستحق للعبادة دون سواه ممن لا يخلق ولا يدبر شيئا، وأن من يعبد غير الله ليس معه برهان على صحة هذه العبادة. ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾... الآيات

٣. تسخير الكون للعباد منة من الله تعالى وحده، وإحكام الكون دليل على وحدانيته. وذلك في قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات.

٤. الرد على من نسب الولد لله عز وجل، وبيان تعاليه وغناه عن ذلك، والتنويه بفضل الملائكة. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ الآيات.

٥. بيان عجز ما اتخذه الكفار آلهة، وأنها لا تمنعهم من حلول عقاب الله تعالى بهم، وأن الذي غرهم وأغراهم بالكفر هو إمهال الله لهم. ﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ الآيات.

الباب الثاني

التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء

دراسة تطبيقية

ويحتوي على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مناسبات سورة الأنبياء

الفصل الثاني: موضوعات سورة الأنبياء وتناسقها

الفصل الثالث: تفسير آيات سورة الأنبياء في ضوء تناسقها الموضوعي.

الفصل الأول

مناسبات سورة الأنبياء

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها.

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.

المبحث الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

المبحث الأول

مناسبة اسم السورة الكريمة لموضوعاتها

المبحث الأول

مناسبة اسم السورة الكريمة لموضوعاتها

"هذه السورة مكية، تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية:

موضوع العقيدة؛ تعالجه في ميادينه الكبيرة: ميادين التوحيد، والرسالة والبعث"(١).

والعقيدة التي جاءت بها السورة، هي التي بعث الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، وهي عقيدة الأنبياء كلهم، قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الأنبياء:٩٢]، وقال عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقال ﷺ: (الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد)(٢). أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الأخوة لأب من أمهات شتى (٣) "قال جمهور العلماء: معنى الحديث أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف"(٤).

والعقيدة التي دعوا إليها هي أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله: وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾[النساء:١٣٦].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/٢٣٦٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٧/٩٦).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٤/٣٠٨٠).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٤٤٧).

وقال ﷺ: في الحديث المتفق على صحته – حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان – فقال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1]. فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل[2]. لهذا ناسب أن تسمى السورة التي تناولت عددا من جوانب العقيدة – ومنها إثبات نبوة الأنبياء والرد على منكريها – ناسب أن تسمى باسم الأنبياء لأنهم هم مبلغو هذه العقيدة.

وقبل الحديث عن مدى مناسبة اسم سورة الأنبياء لموضوعاتها أسرد الموضوعات الرئيسية لهذه السورة الكريمة، ثم أبين مناسبة كل موضوع منها لاسم السورة ، وذلك على النحو التالي:

أولا: موضوعات سورة الأنبياء:

١. تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.
٢. تقرير وحدانية الله تعالى والبعث.
٣. إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.
٤. بيان عاقبة المؤمنين والكافرين.

ثانيا: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها:

١. **الموضوع الأول:** تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين:

إثبات البعث والحساب والجزاء أحد أركان الايمان التي دعا إليها كل الأنبياء، فافتتحت السورة المسماة باسمهم بأحد أركان دعوتهم وهو الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من جزاء الناس على أعمالهم من خير وشر.

٢. **الموضوع الثاني:** تقرير وحدانية الله تعالى والبعث:

الدعوة إلى التوحيد هو الغاية التي بعث من أجلها الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، فالأنبياء هم

(١) صحيح البخاري (١/١٩)، صحيح مسلم (١/٢٨) واللفظ لمسلم.

(٢) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ١٩٣) .

الوسيلة التي بها يهتدي الناس إلى هذه الغاية العظيمة. وبهذا تظهر مناسبة اسم سورة الأنبياء لهذا الموضوع.

٣. **الموضوع الثالث:** إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم:

ورد في هذه السورة الكريمة ذكر قصص عدد من الأنبياء، ومناسبة ذكر قصصهم للسورة المسماة باسمهم ظاهرة.

وقد جاء في هذه السورة الكريمة إثبات أن دين الأنبياء واحد في قوله ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الأنبياء:٩٢] أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: "يقول: دينكم دين واحد"[(١)].

وقوله عز وجل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾إشارة إلى الطريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى، (أمتكم) هي طريقتكم وملتكم طريقة واحدة، لا اختلاف فيها في أصول العقائد، بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[(٢)]. وهؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضا واحد"[(٣)]. ومناسبة بيان وحدة دين الأنبياء للسورة المسماة باسم الأنبياء ظاهرة.

وتسمية السورة التي فيها الدعوة للتوحيد باسم الأنبياء، على صيغة الجمع، مشعر باجتماعهم على دعوة واحدة، وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة.

٤. **الموضوع الرابع:** بيان عاقبة المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

ختمت السورة ببيان جزاء من آمن بدعوة الأنبياء وقبلها، وعقاب من كفر بها وردها وأنكرها، ذلك أن الغاية من إرسال الرسل: دعوة الناس إلى التوحيد، لينجوا من عذاب الله يوم القيامة، وينعموا بجنته، فدعوة الأنبياء كانت لإصلاح الحياة الآخرة للناس، لأن الدنيا زائلة والآخرة هي الباقية ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٩٢/١٦).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢٤٦/٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٣٠).

[غافر:٣٩]. فمناسبة هذا الموضوع لاسم السورة : أن ما ذكر من جزاء للمؤمنين والكافرين إنما هو بحسب ما واجهوا به دعوة هؤلاء الأنبياء الذين سميت السورة باسمهم، فمن آمن بهم نجا، ومن كفر بهم خسر.

المبحث الثاني

مناسبة فاتحة السورة الكريمة لموضوعاتها

المبحث الثاني

مناسبة فاتحة السورة الكريمة لموضوعاتها.

"افتتحت سورة الأنبياء بقول الله عز وجل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١] وكان في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها، وتخلل هذه الآي من التهديد وتشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدئت"(١). فبين فاتحة السورة وبين موضوعاتها تناسب، أسعى في هذا المبحث إلى إبراز ما يتيسر منه.

الموضوع الأول: تكذيب العباد بالساعة، وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب النزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

هذا الموضوع يشتمل على الآيات الأولى في السورة، ومناسبة مطلع السورة الكريمة لهذا الموضوع ظاهرة، فإنه هو -أي الموضوع- مستنبط من الآيات الأولى.

جاء مطلع السورة مثبتا الحساب على الأعمال في الآخرة، ومبينا موقف الناس منه، فأكثرهم مكذبون بالساعة، لتكذيبهم النبي الذي أخبر بها، وإنكارهم الكتاب الذي حاء به، لذلك ختم المقطع ببيان عقاب الله تعالى للأمم المكذبة، تخويفا لهؤلاء المكذبين.

الموضوع الثاني: تقرير وحدانية الله تعالى والبعث.

فاتحة السورة أنكرت على مكذبي البعث، وآيات التي في هذا الموضوع تقرر البعث بأدلته، تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٧﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

في هذه الآية الكريمة يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم:٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا، بل للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب امتثال

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر الغرناطي(٢٥٦).

أمره، وأنه يجازي المسيء والمحسن[1]. وهذا الجزاء وقت له يوم يبعث فيه الناس ويحاسبون، وهو يوم قريب وإن استبعده الكفار. قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣].

الموضوع الثالث: إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.

أشارت فاتحة السورة إلى تكذيب الكفار للرسول ﷺ الله عليه وسلم، ورد دعوته لأنه بشر مثلهم، وفي هذا الموضوع جواب لشبهتهم، حيث يشتمل على قصص الأنبياء مع أقوامهم، ويبين موقف الأمم من رسلهم، وأن كل رسول وجد من ينكر دعوته ويكذبه فيما جاء به. ولا ينتفع بوعظ ولا تذكير، وأن سنة الله في الرسل ثابتة، حيث ينصرهم ويكبت عدوهم.

وفي نصرهم نصر للدين الذي بعث به الأنبياء جميعا، وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢].

الموضوع الرابع: بيان عاقبة المؤمنين والكافرين .

لما أخبرت فاتحة السورة عن اقتراب الحساب، جاءت خاتمتها بشيء من التفصيل للجزاء الذي يعقب الحساب، جزاء من هم ﴿فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١]، الذين غفلوا عن الحساب وأعرضوا عن الاستعداد والعمل له، فندموا حين لا ينفعهم الندم، وقالوا ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء:٩٧] ، وتبين خاتمة السورة أيضا جزاء من آمن بيوم الحساب وعمل له، فيقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء:١٠١]

فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة رداً على قوله ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١] [2].

---

(١)ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ٢٧٦). زاد المسير لابن الجوزي (٩٢٥)، تفسير النسفي (٧٠٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٠).

(٢) نظم الدرر للبقاعي(١٢٨/٥).

المبحث الثالث

مناسبة فاتحة السورة الكريمة لخاتمتها

المبحث الثالث

مناسبة فاتحة السورة الكريمة لخاتمتها

افتتحت سورة الأنبياء عليهم السلام ببيان موقف المعاندين ، وغفلتهم وإعراضهم عن الوحي، وإنذارهم باقتراب حسابهم، وذكر بعض اعتراضاتهم على رسالة محمد ﷺ، والإنكار عليهم في إعراضهم عنها، وأنها نعمة من الله لهم ورفعة وذكر في الدنيا والآخرة لو قبلوها. وتخلل ذلك موعظة لهم ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وختمت السورة بالتأكيد على هذه المعاني، ففي مقابل موقف المعرضين الغافلين، أثنى على المؤمنين الذين ينتفعون بالقرآن فيكون بلاغا لهم.

ولما كانت فاتحة السورة تنذر المعاندين باقتراب حسابهم الذي يعاقبون فيه على كفرهم، وكانوا لم يروا العذاب في دنياهم، وكان ذلك ربما أوهمهم أنهم على حق في كفرهم، إذ لو كانوا على باطل لما أُمهلوا، جاء الرد على هذه الشبهة في خاتمة السورة ببيان أن الإمهال لا يدل بالضرورة على رضا الله تعالى عن ما هم عليه، بل ربما كان ذلك إمهالا فتنة لهم. قال تعالى ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

وفي مقابل افترائهم على النبي ﷺ الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ، يبين في خاتمة السورة حقيقة هذا النبي الكريم ﷺ ، وأنه رحمة للعالمين.

وأشار في الخاتمة إلى الموقف الذي ينبغي أن يتخذه النبي ﷺ ممن تولى عن دعوته، وقد سبق ذكر نماذج من توليهم في مطلع السورة الكريمة.

ولما أخبر في مطلعها عن علم الله تعالى بالقول كله، فصل هذا المعنى في خاتمتها ، فبين أنه يعلم ما يجهرون به من القول، ويعلم ما يكتمون.

وأخبر في مطلعها أنه صدق أنبياءه ما وعدهم، وختمت السورة بدعاء الرسول ﷺ أن يحكم الله بينه وبين قومه، وهو سؤال تعجيل ما وعد الله به (١).

[1] ينظر: الكشاف للزمخشري للزمخشري(٢/ ٥٨٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١٣٠).

الفصل الثاني

موضوعات سورة الأنبياء وتناسقها

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

المبحث الثاني: تقرير وحدانية الله تعالى والبعث.

المبحث الثالث: إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.

المبحث الرابع: بيان عاقبة المؤمنين والكافرين.

تمهيد

سورة الأنبياء مكية، موضوعها هو موضوع السور المكية، وهو الإيمان، وأسلوبها أسلوب السور المكية، وقد تكلم علماء التفسير عن أسلوب وخصائص القرآن المكي والقرآن المدني، وننقل هنا الخصائص التي ذكرها الزرقاني للقرآن المكي، ونختار منها ما ينطبق على سورة الأنبياء:

"أولا: أنه حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال... ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام، وسفه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق، وقبح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]. وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جحود الإلهيات والنبوات وإنكار البعث والمسؤولية والجزاء.

ثانيا: أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق وعلى ما في الكون من أعلام الرشد ونوع لهم في الأدلة وتفنن في الأساليب وقاضاهم إلى الأوليات والمشاهدات ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته والإيمان بالبعث ومسؤوليته والجزاء العادل ودقته ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله في الإلهيات والنبوات والسمعيات في العقائد على سواء...

خامسا: أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان ما داموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان.

سادسا: أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات... والسور. لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن صناعتهم الكلام وهمتهم البيان فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب.

كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد وأن يقدم الأهم على المهم. ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات، أهم من ضروب العبادات

ودقائق المعاملات لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية؛ لذلك كثر في القسم المكي التحدث عنها والعناية بها"[1].

وهذه الخصائص التي ذكرها نجدها واضحة في سورة الأنبياء. فهي تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية، وهو موضوع الإيمان؛ لأنها نزلت في بداية الدعوة، فاعتنت بتصحيح الأساس قبل بناء معالم الدين؛ فبينت قضايا الإيمان الكبرى، وهي الساعة، والرسول، والكتاب، ووحدانية الله عز وجل. وكان الأسلوب في عرض هذه المواضيع يدور بين مخاطبة القلوب بالموعظة بالترغيب وبالترهيب، وبين مخاطبة العقول بالمجادلة وعرض الحجج والأدلة على الإيمان، ورد الشبهات التي يوردها المنكرون المكذبون.

ولما كانت السورة أنزلت في مكة المكرمة، والمسلمون في حال ضعف، ويصيبهم من الكفار أذى معنوي وحسي كثير، فقد جاءت السورة بتسلية المؤمنين عن ما يصيبهم، بذكر جزاء الكفار في الدنيا والآخرة، ونصرة الله تعالى لأوليائه عليهم.

وبعد التأمل في السورة وجدت أنه يمكن تقسيمها إلى موضوعات أربعة:

الموضوع الأول: تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

وجاء هذا الموضوع في بداية السورة، من الآية الأولى إلى الآية (١٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

الموضوع الثاني: تقرير البعث ووحدانية الله تعالى.

وجاء هذا الموضوع في الآيات (١٦- ٤٧). وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

الموضوع الثالث: إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.

وجاء هذا الموضوع في الآيات (٤٨- ٩٣). وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ١٩٥- ١٩٧).

الموضوع الرابع: بيان عاقبة المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة وجاء هذا الموضوع في الآيات (٩٤- ١١٢). من قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

وسأتناول كل موضوع من هذه الموضوعات في مبحث مستقل.

المبحث الأول:

تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

ويشمل الآيات (١– ١٥) وجاء على محورين:

المحور الأول: تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، والرد عليهم.

المحور الثاني: بيان عاقبة المكذبين.

المحور الأول: تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، والرد عليهم:

وقد جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات (١- ١٠)

قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَاۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١ - ١٠]

استهلت السورة الكريمة بأسلوب بديع في الافتتاح، فيه من شد الانتباه ولفت النظر، وغرابة الأسلوب ما يهز الغافلين هزا[١] فأخبرت عن اقتراب الحساب، وأن الناس المكذبين به غارقون في الغفلة منغمسون فيها، فلا يتعظون بالمواعظ، لأنهم جمعوا مع الغفلة الإعراض، فهم "غافلون عن حسابهم، ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم – مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء– ثم إذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم" [٢]، ولو سمعوا، فقلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية، فلا ينتفعون بما يسمعون[٣]

ولما كذبوا بالساعة، اقتضى ذلك تكذيبهم للرسول المنذر بها ﷺ ، فأخبر عز وجل أن المكذبين لشدة غفلتهم وإعراضهم، تناجوا بينهم سرا وبالغوا في إخفاء مناجاتهم، وتشاوروا في كيفية الصد عنه،" فطعنوا في نبوته بأمرين: أحدهما أنه بشر مثلهم، والثاني أن الذي أتى به سحر" [٤].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٦٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٨).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٤٠).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٨).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٤٢).

لكن الله تعالى يعلم السر وأخفى، لذلك أمر نبيه ﷺ أن يخبرهم أنه يعلم القول كله، علانيته وسره، يستوي في علمه سبحانه الإسرار والإعلان، فهم إن أخفوا قولهم عن الناس فلا يقدرون على إخفائه عن ربهم جل وعلا [١]

ثم عاد السياق إلى حكاية أقوالهم الباطلة التي نسبوها إلى الرسول ﷺ وإلى الكتاب الذي جاء به، مخبرا عن اضطرابهم في ادعاءاتهم، فمرة يصفون القرآن الكريم بأضغاث الأحلام، ومرة يدّعون أن الرسولﷺ قد افتراه، ومرة يزعمون أنه شاعر، وأن ما جاء به من جنس الشعر. وفي هذا الاضطراب منهم ما يدل على جهلهم بحقيقة ما جاء به، وما كان هذا الجهل إلا بسبب إعراضهم[٢].

ثم يتعنتون فيطلبون من النبيﷺ آية مادية كآيات الأنبياء السابقين، وهذا مبالغة منهم في تكذيبه عليه الصلاة والسلام، وإنكار منهم للآية العظيمة التي جاءهم بها، وهي القرآن الكريم.

"ولقد تكررت حكاية هذه الصور والأقوال مما يدل على أنها كانت تتكرر بتكرر المناسبات والمواقف. حيث كانت هذه تتكرر نتيجة لاستمرار النبي ﷺ في دعوته ورسالته" [٣]

وبعد أن حكت السورة أقوال الكافرين، بدأت بإقامة الحجة عليهم، بأكثر من طريقة، فبدأ الرد على شبهتهم الأخيرة، وهي طلبهم الآيات، فأخبرهم الله تعالى أن الأمم المكذبة لم تنتفع بالآيات، بل كانت وبالا عليهم لما لم يؤمنوا إذ عاجلهم الله بالعقوبة، وهم مثلهم في الإنكار والتكذيب وعدم الانتفاع بالآيات، فطلبهم الآيات هو أضر شيء عليهم. [٤] . "ولقد تكررت الآيات، وتكرر التكذيب بها، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين، فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين.!" [٥]

ثم يرد على إنكارهم بشرية الرسول ﷺبتقرير أن الأنبياء السابقين – الذين طلبتم أيها الكفار آية مثل الآيات التي جاءوا بها –كانوا من البشر، وإن كنتم تشكون في ذلك فاسألوا أهل الكتاب. ومن لوازم بشرية الرسل أنهم تطرأ عليهم العوارض البشرية من الطعام، والنوم والموت، فلا يخلدون.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٤٣)، معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣١٠).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٥- ٩٥٦).

(٣) التفسير الحديث لمحمد عبد الله دراز (٥/ ٢٥٥).

(٤) ينظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى (٧/ ٣٤٢٩)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٩).

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٦٨).

"لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم. وسلوكهم العملي نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس. فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدي، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة.

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام، ولا يمشون في الأسواق، ولا يعاشرون النساء، لا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم، لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس. فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون... والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزها عن انفعالات البشر، كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها، لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص. وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس.

وهنالك اعتبار آخر، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته لأنه من جنس غير جنسهم، وطبيعة غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية. وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس.

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرسل منه.

تلك سنة الله في اختيار الرسل، ومثلها سنته في إنجائهم ومن معهم، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين" [1] وفي هذا تنبيه إلى أن المهم ليس جنس الرسل، بل صحة ما جاءوا به، وصدق وعد الله لهم، وإهلاكه أعداءهم.

وتختم آيات المحور الأول من هذا الموضوع بالرد على طلبهم آية كآيات الأنبياء، فينبههم إلى أن الآية التي جاءتهم هي أعظم آية؛ إذ فيها تذكيرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وفيها رفعة لشأنهم وتشريف لهم.

وفي هذا الشرف يقول سيد قطب: "ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا... ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب، وقادوا به البشرية قرونا طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب. حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكرهم، وصاروا ذيلا للقافلة يتخطفهم الناس، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون !وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٦٨).

الزاد. وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة. فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم. لأنها تجد عندهم ما تنتفع به. فأما إذا تقدموا إليها عربا فحسب بجنسية العرب. فما هم؟ وما ذاك؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة...

ولقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هذا القرآن. ولا يأتيهم بالخارقة التي يطلبونها. فلا يأخذهم وفق سنته بالقاصمة كالقرى التي كذبت فاستؤصلت" [1]

ثم يعرض في المحور الثاني نموذجا للإهلاك الواقع على القرى المكذبة.

وأما المحور الأول فخلاصة القول فيه أنه بين حال المكذبين، وذكر بعض شبهاتهم التي أوردوها ليكذبوا بالبعث وبالرسول وبالكتاب المنزل عليه، وبين تهافت تلك الشبهات.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٧٠).

المحور الثاني: بيان عاقبة المكذبين:

وقد جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات(١١/ ١٥)

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١١ – ١٥]

جاءت آيات هذا المحور بتفصيل للخبر الذي جاء في المحور السابق في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ فذكر في هذه الآيات العقاب الذي حل بالمكذبين في الدنيا، وهو أن الله قصمهم وأهلكهم إهلاكا تاما لا يعودون بعده إلى الدنيا، وهذا من معاني قوله عز وجل في آخر السورة الكريمة ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ، وأن هؤلاء المعذبين لما رأوا بأس الله وعذابه قد نزل بهم، فروا هاربين من قراهم، فنودوا بتهكم: لا تركضوا، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم، عندئذ اعترفوا بظلمهم، ولكنه لا ينفعهم، فسنة الله تعالى أن التوبة لا تقبل بعد معاينة العذاب، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة غافر: ٨٤، ٨٥] وقال عن فرعون حين آمن لما أدركه الغرق: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩١].

لذلك دعا أولئك على أنفسهم بالويل، فقالوا ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ، وما زلوا يدعون بذلك حتى لم يبق لهم حس ولا حركة، وجفوا كما يجف الحصيد، وخمدوا كما تخمد النار "[1]

وخلاصة القول في هذا المحور أن الله تعالى أخبر عن سنته في إهلاك المكذبين، وبين حالهم حين وقوع العذاب عليهم. وفي هذا تخويف وتحذير للمكذبين.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٤٧).

المبحث الثاني

تقرير وحدانية الله تعالى والبعث

ويشمل الآيات (١٦ – ٥٠) وجاء في ثلاثة محاور:

المحور الأول: تنزيه الله عز وجل عن العبث، وعن الشريك والولد.

المحور الثاني: الاستدلال على وحدانية الله تعالى، بآياته في الآفاق، وبخلوده عز وجل.

المحور الثالث: ذكر استهزاء الكفار بالنبيﷺ وبما جاء به من التوحيد، وتحذيرهم من عاقبة استمرارهم على الكفر.

تمهيد

بعد التأمل في الآيات الكريمة، تبين أنها سيقت لتقرير وحدانية الله تعالى، ولتقرير البعث.

وقد جاء الحديث عن هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور:

المحور الأول: تنزيه الله عز وجل عن العبث، وعن الشريك والولد، وجاء في الآيات (١٦ - ٢٩)

المحور الثاني: الاستدلال على وحدانية الله تعالى، بآياته في الآفاق، وبخلوده عز وجل، وجاء في الآيات (٣٠- ٣٥)

المحور الثالث: ذكر استهزاء الكفار بالنبيﷺ ، وتحذيرهم من عاقبة استمرارهم على الكفر. وجاء في الآيات (٣٦- ٤٥)

المحور الأول: تنزيه الله عز وجل عن العبث، وعن الشريك والولد.

وجاء في الآيات (١٦ - ٢٩)

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لما بدئ الحديث في الموضوع الأول بالإخبار عن استقبال المشركين للوحي باللهو والعبث، بدئ هذا الموضوع بتنزيه الله تعالى عن اللهو والعبث، فقد خلق عز وجل الكون بسماواته وأرضه، والمخلوقات التي فيهما، لا لعبا ولا لهوا، بل ليتفكر الناس فيه، فيهتدون إلى خالقهم سبحانه وتعالى.

يقول سيد قطب: "فإذا كان المشركون يستقبلون القرآن كلما جاءهم منه جديد باللعب واللهو، غافلين عما في الأمر من حق وجد، وإذا كانوا يغفلون عن يوم الحساب القريب، وعما ينتظر المكذبين المستهزئين، فإن سنة الله مطردة نافذة مرتبطة بالحق الكبير والجد الأصيل"(١)

وبهذا تظهر مناسبة بداية الموضوع الثاني لفاتحة الموضوع الأول، أما ما ختم به الموضوع الأول، وهو ذكر إهلاك القرى المكذبة، فقد جاء بعده نفي العبث عن خلق الكون، تنبيها على أن جزاء المكلفين على أعمالهم هو مقتضى الحكمة، قال الطاهر ابن عاشور في هذا المعنى:

"وكثر أن ينبه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المناسبة بين خلق ما في السماوات والأرض ملتبسا بالحق، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم إلى أن عمتهم الشريعة العامة الخاتمة شريعة الإسلام، والى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقى فيها النفوس جزاء ما قدمته في هذه الحياة الزائلة جزاء وفاقا.

فلذلك كثر أن تعقب الآيات المبينة لما في الخلق من الحق بالآيات التي تذكر الجزاء والحساب، والعكس، كقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص: ٢٦ - ٢٨]، وقوله تعالى: تعالى﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الدخان: ٣٧ - ٤٠]، وقوله تعالى:﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٧١)

﴿وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأحقاف: ٣] إلى غير هذه الآيات، فكذلك هذه الآية عقب بها ذكر القوم المهلكين" (١).

وتأكيدا لنفي اللهو عن خلق السماوات والأرض، يقول عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ فلو أراد الله تعالى- على سبيل الفرض -أن يتخذ لهوا، لم يتخذ مخلوقا يراه الناس ويطلعون عليه، ولاتخذ شيئا من عنده، وهذا تنزل مع العقول الصغيرة لإقناعها، ولذلك ختم الآية بالنفي، فقال عز وجل: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

ثم بين تعالى قوة الحق الذي خلق به السماوات والأرض، فأخبر أنه يدمغ الباطل، ويذهبه ويميته فلا تقوم له قائمة. فقال جل وعلا ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أما أهل الباطل المتمسكون بباطلهم، فليس لهم إلا الويل.

ولما تم التنزيه عن اللهو، انتقلت الآيات إلى تنزيه الله تعالى عن الولد الذي نسبه له بعض المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك. فقال تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ يخبر سبحانه أن الكون كله له، هو خالقه، ومدبره، والمتصرف فيه جل وعلا، وليس شيء في الكون مكافئ له عز وجل، فكيف يكون شيء منه ولدا لله؟ تعالى الله عن ذلك. وهؤلاء الذين زعمتم أنهم بنات الله -تعالى عن ذلك - هم في حقيقة الأمر عباد له عز وجل، لم يتميزوا عن غيرهم من مخلوقاته إلا بمزيد عبوديتهم له سبحانه، فهم لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر المشركون، بل يتشرفون بها، ولا يملون من طول العبادة التي هم مستمرون دائبون عليها ليلا ونهارا بلا تعب أو فتور.

وبعد أن نزه نفسه عن الشريك في السماء، نزه نفسه جل وعلا عن الشريك في الأرض، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يسألهم باستنكار وتهكم: هل آلهتكم الأرضية التي تعبدونها تحيي الموتى، فتستحق العبادة؟ كلا، فليس في السماوات والأرض إله بحق إلا الله سبحانه وتعالى، ولوكان فيهما آلهة أخرى لفسدتا، وفسد ما فيهما من المخلوقات. "فالعالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٣٠- ٣١).

يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١]"[1]

وبعد أن أثبت الوحدانية بالدليل العقلي، نزه نفسه عن ما افتراه المفترون، وأخبر أنه عز وجل لكمال سلطانه وغناه، وعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، لا يسأله سائل عن ما يفعل، ولا يعارضه معارض، فهو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، بخلاف المخلوقين الذين يسألون يوم القيامة عن أعمالهم فيحاسبون عليها[2]

وبعد البرهان العقلي على بطلان الآلهة غير الله تعالى، يوبخهم مطالبا إياهم بالبرهان الذي استندوا عليه في عبادتهم لتلك الأصنام، وقد علموا أنها في منزلة دنيا ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ ، وليس عندهم برهان ولا دليل على صحة ما هم عليه من الشرك، فهذا القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ، وتلك الكتب السماوية كلها جاءت بالتوحيد، وليس في شيء منها إقرار بالشرك، فما دليلكم على صحة ما أنتم عليه من الشرك؟ فالبرهان النقلي قد ثبت أنه جاء بالتوحيد ونبذ الشرك، لكن الكفار المعرضين عن طلب الحق لا يعلمونه ولا يتبعونه. ولو طلبوه لعلموا أن كل الرسل كانت دعوتهم وعقيدتهم: لا إله إلا الله. لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ويستمر السياق في تنزيه الله تعالى، والرد على المشركين، فيعود إلى الرد على الذين نسبوا الولد له تعالى،فبدأ بتنزيه نفسه عن الولد، وثنى بالثناء على الملائكة، لئلا يُظن أن نفي بنوتهم يقدح فيهم، بل هم في منزلة عالية من العبودية، فقد أكرمهم الله تعالى ورفع شأنهم: بما وفقهم إليه من العبادة التي سبق ذكر طرف منها، وبما وفقهم إليه من التأدب معه عز وجل، فهم يعظمونه سبحانه ويوقرونه، فلا يقولون قولا دون إذنه سبحانه. وكما أن قولهم تابع لأمره، فكذلك فعلهم تابع لأمره، فإذا أمرهم بأمر امتثلوا، لا يعارضون أمره، ولا يتكاسلون عنه، لأنهم يعلمون أنه سبحانه قد أحاط بهم علما، يعلم ما

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢١).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢١).

قدموا من الأعمال وما أخروا منها، فهم يخشونه سبحانه أشد الخشية، حتى إنهم لا يشفعون لأحد إلا بإذن الله، ونص على الشفاعة مع دخولها في عموم القول لأن الذين عبدوا الأصنام كانوا يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس: ١٨] لذلك أخبر أن الملائكة لا يشفعون إلا لمن ارتضاه عز وجل، وهم أهل التوحيد. وإذا كان هذا حال الملائكة فإنه لا يتصور أن يدّعوا لأنفسهم الألوهية، ولا أن يقبلوها، لكن لما كان الجهال قد ادعوا ذلك جاء الرد عليهم، فأخبر عز وجل أنهم- رغم هذه المنزلة العالية – لو ادعى أحدهم الألوهية لكان جزاؤه جهنم، التي أعدها الله للكافرين الظالمين، وفي هذا تعريض بالذين نسبوا لهم الألوهية بأنهم قالوا ما يوجب لقائله عذاب جهنم، وفي هذا تفظيع لشأن الشرك، وتعظيم لأمر التوحيد(١).

رأينا في هذا المقطع كيف" تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة، لا يدعيها أحد. ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم !وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله، مشفقين من خشيته. بينما المشركون يتطاولون ويدعون."(٢)

وهكذا يختم المحور بمثل ما بدأ به من تنزيه الله تعالى عن كل نقص، وهذا يتضمن إثبات الكمال له سبحانه، وفيه تقرير لوحدانيته عز وجل، وهو موضوع هذه المجموعة من الآيات.

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٠) ، نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٧٨)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٥٢)

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٧٥)

المحور الثاني: الاستدلال على وحدانية الله تعالى، بآياته في الآفاق، وبخلوده عز وجل:

وجاء في الآيات (٣٠- ٣٥)

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

لما قررت آيات المحور السابق التوحيد عن طريق تنزيه الله سبحانه عن العبث، وعن الشريك والولد، عادت إلى تقرير التوحيد عن طريق ذكر الأدلة على بطلان الشرك، وعلى وحدانية الله تعالى، فأوردت الأدلة العقلية مما يشاهده الناس، وفصلت قوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وبينت أن الله تعالى هو خالق الكون كله بمخلوقاته كبيرها وصغيرها، ليس له شريك في ذلك، وإذا ثبت أنه سبحانه منفرد بالخلق والتدبير، وجب إفراده بالعبادة والألوهية، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية. وفي هذا" رد على عبدة الأوثان من حيث إنّ الإله القادر على هذه المخلوقات المتصرف فيها التصرف العجيب، كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع" [(١)].

ولذلك" لما أنكر سبحانه اتخاذهم آلهة من دونه تارة بقيد كونها أرضية، وتارة بقيد كونها سماوية، وتارة مطلقة، لتعم كلا من القسمين وغيرهما" [(٢)]، دعاهم إلى تأمل آياته في السماوات والأرض، فالمتفكر في خلق السماوات والأرض يراهما في أعلى مرتبة من الإتقان، مما لا يمكن حصوله لو كان للكون أكثر من إله. يقول تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لو تأمل الإنسان في السماء والأرض، لرأى السماء كانت رتقاء ليس

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٢٩٤).

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٧٩).

فيها مطر ولا رجع، والأرض كانت قحطا ليس فيها زرع ولا صدع، ففتقت السماء بالمطر، ولما أصاب الأرض الماء أحياها الله به، فأنبتت الزرع[1]، كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة فصلت: ٣٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْىِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ٤٨ – ٤٩]. ولما ذكر إحياء الأرض بالماء، عمم، فبين أن الماء فيه حياة كل مخلوق حي، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [سورة النور: ٤٥].

وعطف العام على الخاص هنا هو أحد مرجحات القول الذي أثبتناه في معنى رتق السماوات والأرض وفتقهما، فهذا القول يرجحه السياق، أما القول الآخر وهو أنهما كانتا ملتصقتين ففتقهما فالسياق لا يدل عليه[2]، وقال ابن عطية في ترجيح هذا المعنى: " وهذا قول حسن يجمع العبرة، وتعديد النعمة، والحجة بمحسوس بين، ويناسب قوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ أي من الماء الذي أوجده الفتق فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار" [3]

وختم هذه الآية بالإنكار عليهم إذ لم يؤمنوا رغم ما يرونه من الآيات الواضحات لمن طلب الحق، لكنهم معرضون عن الحق لا يطلبونه، كما قال تعالى في الآية السابقة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

"وقد انتظمت هذه الآية دليلين من دلائل التوحيد، وهي من الأدلة السماوية والأرضية."[4]

و"المقصود من ذلك الاستدلال على أن الذي خلق السماوات والأرض وأنشأهما بعد العدم قادر على أن يخلق الخلق بعد انعدامه. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء: ٩٩]" [5]

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٤٢)، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٢٩٢)

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٦٠)

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٤٤٦)

(٤) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٢٩٤)

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٥٥)

وتمضي الآيات في تعداد آيات الله تعالى في خلق الكون، فيقول تعالى﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

بعد لفت أنظار الناس إلى عظيم قدرته تعالى في السماء والأرض، بدأت بذكر بعض مظاهر العظمة في المخلوقات الأرضية والسماوية، وبُدئ بالأرضية التي ختمت بها الآية السابقة، فأشارت الآية إلى خلق الجبال العظيمة الكبيرة، وإلى ثباتها ورسوخها في الأرض، وإلى فائدتها في تثبيت الأرض لئلا تضطرب وتميد بأهلها فلا يستطيعون السير في شؤون حياتهم. كما قال في سورة النبأ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [سورة النبأ: ٧].

ومن تمام نعمته على عباده، المتضمنة عظيم قدرته أن جعل لهم في الأرض كلها، سهلها وجبلها، فجاجا وطرقا يسيرون من خلالها. فلم تكن ضخامة الجبال وصلابتها حائلا بين البلدان، بل جعل الله تعالى – بعظمته وقوته، ورحمته بالناس – فيها الفجاج والطرق التي تشقها، ليهتدوا في مسيرهم من خلالها، ولعلهم يعتبرون بما سخر الله لهم ويكون ذلك سبيلا إلى اهتدائهم للإيمان، فيجمعون الاهتداء القلبي إلى الاهتداء الحسي.(١)

ثم تنتقل الآيات إلى ذكر آيات الله تعالى في السماء ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ، تلفت أنظارهم إلى السماء التي خلقها الله تعالى سقفا للأرض، "ولما كان ما يعرفون من السقوف على صغرها لا تثبت إلا بالعمد، ويتمكن منه المفسدون، وتحتاج كل قليل إلى إصلاح وتعهد، بين أن هذا السقف على سعته وعلوه على غير ذلك فقال﴿ مَّحْفُوظًا ۖ ﴾ "(٢) عن السقوط، كما قال عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [سورة لقمان: ١٠]، وقال: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [سورة الحج: ٦٥].

ومحفوظة من الشياطين، كما قال عز وجل ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [سورة الحجر: ١٧].

وهي "محفوظة من التشقق والتفطر، لا تحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [سورة الملك: ٣]. وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٦٤- ١٦٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٥٧)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٧٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٢)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٨١)

كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [سورة ق: ٦]. أي: ليس فيها من شقوق، ولا صدوع" [١]

يقول ابن عاشور: " لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس. فعقب ذكرها بالامتنان بقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ وبقوله تعالى:﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

وأما حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنه ذكر إعراضهم عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقب بقوله تعالى﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ فأدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض فتعطل منافعها، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به"[٢]

ولكن الكفار معرضون عن هذه الآيات الباهرة، فلا ينتفعون بها، فكيف يطلبون من النبي آية محسوسة ليؤمنوا، وعندهم هذه الآيات الكونية العظيمة؟ !وفي هذا توبيخ لهم على إعراضهم. "وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها، والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبرها ونصبها هذه النصبة، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه... فهم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمريها، والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها، وهم عن كونها آية بينة على الخالق مُعْرِضُونَ" [٣]

"نلاحظ أن السورة بدأت بالخبر عن إعراض الكفار، ثم تكرر الخبر عن إعراضهم بتعدد صوره: إعراض عن السماع، وعن التدبر، وعن الإجابة عن السؤال المذكر لهم بالله. وكل ذلك يقرر عدم استفادتهم من الإنذار بسبب منهم.

وهذا الإعراض سببه تصوراتهم الفاسدة عن موضوع الرسالة والرسول، أو آراؤهم الفاسدة عن موضوع الإلهية، وقد رد الله تعالى عليهم ذلك كله وبين الحق لتقوم الحجة عليهم كاملة. وكل ذلك بلغة التذكير، فالسورة نموذج على كون القرآن ذكرا" [٤].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (٤/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٥٩).

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧١).

(٤) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٧/ ٣٤٦٥) بتصرف.

ولما ذكر الله تعالى آية من آياته في الأرض، وآية في السماء، وأخبر أن المشركين معرضون عن الآيات، فصل في آيات السماء التي يمتد أثرها إلى الأرض، فهي آيات مشتركة بينهما، وهي الليل والنهار، وأجرامهما، الشمس والقمر، فقال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

"ولكون المنة والعبرة في إيجاد نفس الليل والنهار، ونفس الشمس والقمر، لا في إيجادها على حالة خاصة، جيء هنا بفعل الخلق لا بفعل الجعل " [1]. فنبههم أنه تعالى خلق الليل في ظلامه وسكونه، والنهار بضيائه وأنسه، يطول أحدهما فيقصر الآخر، فكل منهما له مسار وفلك خاص يجري فيه، وله نور يخصه، وزمان يخصه. وكل ذلك بحساب، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

وأخبر عن سير الأجرام السماوية بفعل السباحة، لأن الفضاء يشبه الماء من حيث انعدام الجاذبية، فالحركة فيه أقرب إلى السباحة من السير. وعبر بضمير العقلاء لأن السباحة من فعل البشر فأجرى الخبر عنها مجرى الخبر عنهم [2]

"ولما ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلف عن الظهور في وقته المعلوم، فأجيب بأن كل المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره" [3]. وفي هذا دليل واضح على عظمة خالقها سبحانه.

"والليل والنهار ظاهرتان كونيتان. والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض. وبالحياة كلها، والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة، جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير." [4]

يقول سعيد حوى عن تناسق هذا المحور: "لفت الله نظر الكفار في الآيات الأربع الأخيرة إلى أصل السماوات والأرض وأصل الحياة، وإلى ظاهرة العناية في خلق الجبال، وخلق الفجاج

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٥٩)

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٦١)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٣)

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٦٠)

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٧٧)

وإلى حفظ السماء من الشياطين، وإلى ظاهرة العناية في خلق الليل والنهار، وسباحة الشمس والقمر والأرض في هذا الفلك الكبير، وفي لفت النظر إلى هذا ما يخرجهم من الكفر إلى الإيمان لو عقلوا، ومن ثم قال في الآية الأولى: ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

كما أن في هذا ما يخرجهم من الإعراض إلى الأقبال لو تفكروا، ومن ثم قال في الآية الثالثة ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾. فالآيات هذه تعالج الإعراض، وتعالج الكفر، وفي ذلك مظهر من مظاهر صلة هذه الآيات في السياق، وفي لفت النظر إلى هذا تعريف على الله وكمال قدرته وعظمته وفي ذلك رد لما زعموه في حق الله من الولد وتقرير لوجوب توحيده وعبادته، وهذا مظهر من مظاهر الصلة في السياق ومثقف هذا العصر يدرك أن ذكر هذه الآيات في هذا السياق هو أعظم رد على قولهم عن القرآن ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾. إن كتاباً يتحدث عن السماوات والأرض كما رأينا في الآيات الأربع لا يمكن أن يكون كما وصفوا، بل لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، وإذن فهذه الآيات إذ تعرض مظهراً من مظاهر عظمة الله، ترد على من زعم أن لله ولدا وتذكر بوحدانيته وضرورة عبادته، وترد على ما زعمه الكافرون عن هذا القرآن، وتؤكد علم الله المحيط كما أنها توقظ من الغفلة وتخرج من الإعراض، ولذلك صلة بما سبق من السورة" [1].

وفي نهاية المقطع تربط الآيات بين نواميس الكون في خلقه وتكوينه وتصريفه ونواميس الحياة البشرية في طبيعتها ونهايتها ومصيرها [2] فبعد أن لفت أنظارهم إلى آياته في الآفاق، انتقل إلى ذكر آياته في أنفسهم، فنبههم إلى ما يعرفونه من أن البشر ليسوا خالدين، وهذا لضعفهم ونقصهم، واحتياجهم إلى الله تعالى الحي الذي لا يموت، وهذا لكماله سبحانه وتعالى، فهو منزه عن النقص والضعف والفناء، فواجب عليهم- وقد علموا كماله سبحانه – أن يؤمنوا به ويوحدوه، فلا يعبدوا معه غيره، إذ لا يستحق العبادة أحد إلا هو عز وجل.

وفي نفي الخلود عن البشر بيان لخطأ تصور الكفار الذين" كان من جملة أمانيهم لما أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنون موت محمد ﷺ أو يرجونه أو يدبرونه قال تعالى﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [سورة الطور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠]. وقد دل على أن هؤلاء هم المقصود من قوله تعالى: ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ فلما كان تمنيهم موته وتربصهم به

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٧/ ٣٤٥٥- ٣٤٥٦)

(٢) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٧٧)

ريب المنون يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم واثقون بأنهم يموتون بعده فتتم شماتتهم، أو كأنهم لا يموتون أبدا فلا يشمت بهم أحد، وجه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون" (١)

ثم أجابت الآية التالية عن الاستفهام الإنكاري الذي ختمت به الآية، فقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

فهو عز وجل إنما خلقهم للابتلاء، كما قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [سورة الملك: ٢]، وقال هنا: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ، وهذا أمر يشاهده الناس في أنفسهم، حيث تمر بهم أنواع الابتلاءات، بالسراء تارة، وبالضراء تارة أخرى، وسيأتي في قصص الأنبياء نماذج للصبر على الضراء والشكر على السراء. والمؤمن الموفق هو الذي لا تزيده السراء إلا شكرا، ولا تزيده الضراء إلا صبرا، لأنه يعلم أنه راجع إلى الله تعالى، وأنه محاسب على ما يفعل.

وفي ختم الآية بذكر البعث عودة إلى الموضوع الذي ابتدأت به السورة، وفي هذا تناسق ظاهر بين الموضوعين. وفي حصر الرجوع إليه سبحانه تقرير للتوحيد. وبهذا التقرير للتوحيد يختم المحور الثاني.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٦٢- ٦٣)

المحور الثالث: ذكر استهزاء الكفار بالنبيﷺ ، وتحذيرهم من يوم القيامة ومآلهم فيه

وجاء في الآيات (٣٦- ٤٧)

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٦ – ٤٧].

بعد أن سجلت الآيات في نهاية المحور السابق موقفا للكفار مع النبيﷺ ، ذكرت هنا موقفا آخر، وهو ما واجهوا به دعوته من الاستهزاء، وهو من الابتلاء الذي أخبر الله عز وجل عنه في ختام المحور السابق، وفيه رفعة لدرجاته عليه الصلاة والسلام، كما قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما سأله: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: ((**الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة**)) [1] وفي ذلك تسلية له ﷺ وتطمين لقلبه، وتثبيت للمؤمنين به إلى قيام الساعة، إذا واجهتهم صعوبات في سبيل دينهم.

(١) مسند أحمد بن حنبل (١/ ١٧٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

فهؤلاء ينكرون على النبي ﷺ أن يبين حقيقة آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، فيستهزؤون به وينتقصونه ويستكثرون أن يذكر آلهتهم بالسوء، في الوقت الذي يكفرون هم بربهم الرحمن، وينسبون له الشريك، ويعبدون معه غيره، وفي ذلك ما فيه من نسبة النقص إليه تعالى، فهم موضع الاستهزاء، لكن لأنهم كافرون بالرحمن لم يستمعوا ولم يتفكروا في ما جاءهم به النبي ﷺبل استهزؤوا، واستعجلوا العذاب تكذيبا.

وهذا الموقف منهم يجعل المسلم يرجو أن يرى جزاء الله لهم، ويستعجله، وذلك لأن العجلة طبع في الناس جميعا، ولكن الله تعالى جعل لكل شيء قدرا، فاستعجال المؤمنين، واستعجال المكذبين، لا يعجل عقابهم، بل آيات الله في انتقامه من المكذبين آتية لا محالة، فلا تستعجلوها، "لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد، وما في تأخير نزوله من المصالح للدين، وأهمها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام" (١)

وفي هذا تقرير للبعث، فهو سيأتي، ولكن لا تستعجلوه أيها الناس.

ولما نهى عن استعجال العذاب، انتهى المؤمنون، وأما الكفار فلا ينتهون، بل يتساءلون عن الذي وعدهم مستهزئين منكرين، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٨] وهذا الخبر عن استهزائهم واستعجالهم العذاب جاء تمهيدا للخبر عن عقابهم، ليُعلم أن ما أعده الله لهم يوم القيامة إنما هو بسبب ذنوبهم.

ولذلك لما لم ينتفعوا بالخبر المجمل في قوله ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ جاءهم التفصيل في العقاب الذي أعده الله لهم يوم القيامة إن لم يؤمنوا، فقال﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

لو يعلمون هذا العذاب، وكيفيته، وإحاطته بهم، ومباغتته إياهم مباغتة تذهلهم عن التوبة، وعجزهم عن دفعه، وعدم الناصر لهم، وخلودهم فيه، لو علموا ذلك لما استعجلوه، وما استمروا على ما هم فيه من الكفر والتكذيب. وهنا تثبت الآيات البعث بطريقة أقوى، حيث فصلت بعض أحداثه، لأنه لشدة تحققه لا ينبغي البحث في وجوده أو عدمه، وإنما في تفاصيله.

"ذلك عذاب الآخرة، وأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم. فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع. وليحذروا الاستهزاء

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٦٧)

برسولهم. وإلا فمصير المستهزئين بالرسل معروف، جرت به السنة التي لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين." [1] ولذلك قال تعالى بعد ذكر عقابهم في الآخرة:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

هل لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمن، ويمنعهم من العذاب في الدنيا أو الآخرة من دون الله فاطمأنوا، واستمروا في غيهم اعتمادا على من سيمنع عنهم بأس الله؟ كلا، ليس لهم كالئ ولا حافظ إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الرحمن الذي أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة لعلهم يتوبوا، وهو الرحمن الذي يحفظهم وينعم عليهم، وهم بذكره كافرون، ومعرضون عن سماع الوحي الذي أوحاه إلى الرسول ﷺ، ومتمسكون بعبادة آلهتهم تمسكا شديدا، كأنها تقدر على منعهم من عقوبة الله تعالى، مع علمهم أنها لا تدفع عن نفسها، ولا تنصر نفسها، فضلا عن عابديها، ولا يجيرهم الله تعالى ولا يحفظهم، فانسدت عليهم أبواب الحفظ أصلاً ورأساً [2] وفي نفي الناصر الحافظ لهم إثبات للبعث، من جهة أنهم في ذلك اليوم سيكونون أحوج شيء إلى الناصر المعين.

فكيف يستمرون في ما هم عليه من الضلال مع أنهم لا قدرة لهم على دفع العذاب، ولا معبوداتهم لها قدرة على ذلك، فما الذي غرهم وجرأهم على الكفر؟

تجيب الآية التالية على هذا السؤال، فيقول عز وجل: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

فالذي جرأهم هو إمهال الله لهم ولآبائهم، وتمتيعهم بمتاع الدنيا من المال والولد، حتى ظنوا هذه النعم- التي هي من الابتلاء بالخير -ظنوها دلالة على صحة ما هم عليه، ولم يعتبروا بنقصان أرض الشرك بظهور الإسلام فيها. وعدم اعتبارهم ناتج عن إعراضهم الذي تكرر إنكاره عليهم

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٨٠)

(٢) ينظر:نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٨٦)

في هذه السورة الكريمة، فهم معرضون عن الوحي الذي جاء به النبي صلى الله لينذرهم به، ولذلك لا ينتفعون به لو سمعوه، لهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ فالسماع بدون انتفاع كعدمه. وإذا كانوا معرضين عن الاعتبار بالوحي، ومعرضين عن آيات الله في الكون، وعن آياته في أنفسهم، فإن هذا الإعراض والاستكبار يصير ندما وحسرة عليهم يوم القيامة إذا ذاقوا أدنى نفحة من عذاب الله، فيصيحون معترفين: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ، وهذا الاعتراف- مثل اعتراف الأمم المكذبة حين ترى العذاب في الدنيا -لا ينفعهم، فقد تمادوا في الظلم، وأصروا عليه، ولم يقلعوا عنه، فكان جزاؤهم الجزاء العدل الذي يستحقونه، دون أدنى ظلم لهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ وحسن ذكر عدل الله تعالى بعد ذكر ظلم الناس، إشارة إلى أنهم- وإن ظلموا -لن يُظلموا.

وهكذا تدور آيات المحور الثالث حول تقرير البعث، وذلك عن طريق ذكر العذاب الذي سيذوقه المستهزئون، ومهد له بذكر استهزائهم، ثم ذكر سبب اغترارهم واستهزائهم، وذكر الميزان الذي توزن به أعمال العباد، والتأكيد على العدل في ذلك اليوم.

المبحث الثالث:

إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم

ويشمل الآيات: (٤٩- ٩٣) وجاء في أربعة محاور:

المحور الأول: سرد قصص لبعض الأنبياء مع قومهم المكذبين.

المحور الثاني: ذكر قصة نبيين مَلِكَين.

المحور الثالث: الإشارة إلى نماذج من صبر الأنبياء.

المحور الرابع: التأكيد على وحدة الدين بين الرسل.

المبحث الثالث: إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم:

وجاء هذا الموضوع في الآيات (٥١- ٩٣)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا
لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا
لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن
قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى
ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا

حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ
لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى
ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ
وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ
وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم
مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا
فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ
وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ
وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا
وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣

تمهيد

سبق في الموضوع الأول ذكر موقف المكذبين لدعوة النبي ﷺ، وذكر بعض ما احتجوا به في رد دعوته، ومن ذلك إنكارهم أن يكون الرسول بشرا، وقد رد الله تعالى عليهم في نفس الموضع بأن سنته في الأنبياء كلهم أنهم بشر، وفي آيات هذا الموضوع نرى نماذج لسنته تعالى في إرسال الرسل من البشر.

و في أثناء السورة أخبر الله تعالى أن دعوة الرسل واحدة، فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ ، وجاء هذا الموضوع بتفصيل ما أشارت إليه هذه الآية [1]

فلهذا الموضوع ارتباط بالموضوع السابق وهو تقرير الوحدانية والبعث، لأن الأنبياء عقيدتهم واحدة، من أركانها الإيمان بالله وتوحيده، والإيمان بالبعث بعد الموت.

ولهذا الموضوع ارتباط أيضا بالموضوع الأول، ففيه بيان لموقف الرسل من أقوامهم، وفي الموضوع الأول بيان لتكذيب العباد بالساعة والرسول والرسالة. وفيه بيان عاقبة المكذبين، وهنا بين عاقبة الرسل ونصره لهم.

فآيات هذا الموضوع "تستعرض أمة الرسل لا على وجه الحصر، تشير إلى بعضهم مجرد إشارة وتفصل ذكر بعضهم تفصيلا مطولا ومختصرا. وتتجلى في هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله، وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات. كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضر، وكيف اجتازوا الابتلاء.

كذلك تتجلى سنة الله في إرسال الرسل من البشر. ووحدة العقيدة والطريق لجماعة الرسل على مدار الزمان، حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان.

وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة، ووحدانية الإرادة المدبرة، ووحدانية الناموس الذي يربط سنن الله في الكون، ويؤلف بينها، ويوجهها جميعا وجهة واحدة، إلى معبود واحد: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ "[2]

وآيات هذا الموضوع "تؤكد على أن الأنبياء بشر، وعلى أنهم ليسوا خالدين، وعلى أنهم ابتلوا بالخير والشر، وأن القرآن ليس إلا وحي من الله أوحاه إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الرسل "[3]. وتفصيل ذلك في المحاور الأربعة التالية:

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٨٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٨٨)

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٨٤)

(٣) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٧/ ٣٤٦٩)

المحور الأول: سرد قصص لبعض الأنبياء مع قومهم المكذبين.
المحور الثاني: ذكر قصة نبيين مَلِكَين.
المحور الثالث: الإشارة إلى نماذج من صبر الأنبياء.
المحور الرابع: التأكيد على وحدة الدين بين الرسل.

المحور الأول: سرد قصص لبعض الأنبياء مع قومهم المكذبين.

لما أمر النبيﷺ في ختام الموضوع السابق أن يقول: ﴿ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾، ابتدأ هذا الموضوع بذكر الوحي الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى وهارون، فنزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة. (١)

ولما كان المكذبون يطالبون النبيﷺ بآية كآيات الرسل السابقين، ذكر الكتاب الذي آتاه موسى عليه السلام في سياق الامتنان دون غيره من الآيات التي آتاه إياها، إشارة إلى أن أعظم آية هي كلام الله تعالى. وفي هذه الإشارة تأكيد لمضمون قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وقد آتى الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام التوراة، التي كانت فرقانا بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وكانت ضياء وذكرا للمتقين الذين اتبعوها وعملوا بما فيها، لأنهم يخشون ربهم ويخافون يوم القدوم عليه سبحانه وتعالى. بخلاف أولئك المعرضين عن الوحي الذين لا ينتفعون به.

وأوصاف التوراة تشبه أوصاف القرآن، فهو فرقان، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة لفرقان: ١]، وهو ضياء ونور، قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [سورة النساء: ١٧٤]، وهو ذكر، قال تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، ولذلك أثنى على القرآن بعد الثناء على التوراة، فقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ فكيف تنكرونه وقد علمتم من شأنه وعظمته ما بين الله لكم؟

ثم تنتقل الآيات إلى ذكر نموذج آخر من الدعوة الواحدة للأنبياء، وذلك في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وقد" مر معنا في السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وهنا يقص الله علينا ماذا فعل إبراهيم بالآلهة الأرضية، وماذا قال عنها، و إلى ماذا دعا" (٢)

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٧٨)، في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٨٤)

(٢) الأساس في التفسير لسعيد حوى (٧/ ٣٤٧٣)

وقد جاءت الآيات مفصلة لنقاشه مع قومه ومحاجته لهم في عبادتهم الأصنام، وذلك لأن أهل مكة كانوا يزعمون أنهم أتباع إبراهيم عليه السلام، فبينت الآيات أن دينه هو التوحيد وليس ما هم عليه من الشرك، ولأن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الأصنام والتماثيل، كما كان مشركو مكة يعبدونها، فالحجة عليهم واحدة، وكل حجة يحتج بها إبراهيم على قومه هي حجة على أهل مكة. (١)

بدأ عليه السلام بسؤالهم عن معبوداتهم، ونعتها بما يبين حقيقتها، فقال: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ أراد عليه السلام بهذا السؤال تنبيه أذهانهم إلى التأمل فى شأنها، وتحقير أمرها، متجاهلا حقيقتها، وكأنه يومىء بذلك إلى أنهم لو تأملوا قليلا لأدركوا أن مثل هذه الأحجار والخشب لا تغنى عنهم قليلا ولا كثيرا" (٢)

فكان جوابهم جواب من لا حجة له ولا برهان، وهو نفس جواب مشركي مكة: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾، وهذه حجة واهية، ولن تنفعهم عند الله، لأن ما هم عليه أبعد ما يكون عن الحق، وهو ظاهر البطلان، لذلك ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فالباطل لا يصير حقا بكثرة المتمسكين به.

ولما واجههم بحقيقة أمرهم، ذهلوا، وتساءلوا كأنهم غير مصدقين ما يسمعون: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ ، وكأن ما قاله لا يمكن أن يكون حقا، ولكن هذا الأمر ليس مما يصح فيه اللهو ولا اللعب، لذلك رد عليهم بما يظهر به أنه محق جاد كل الجد، فقال لهم منتقلا من تضليلهم فى عبادة الأوثان، إلى بيان الحق: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

وبعد أن أثبت الحق بدليله، وأنكر المنكر بقوله، توعد آلهتهم بأن يكيدها، جمعا بين إنكار المنكر بالقول والفعل ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ (٣)

فلما خرجوا من البلدة، ذهب إلى بيت الأصنام فكسرها كلها إلا كبيرها، ليحتج به عليهم إذا سألوه. فلما رأوا آلهتهم على تلك الحال غضبوا غضبا شديدا﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقال بعض من سمعه: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٩٢)

(٢) تفسير الشيخ المراغي (١٧/ ٣٤)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي(٦/ ٣١٧)

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٨٢)

﴾ فتيقنوا أنه هو الذي كسرها، وتنادوا إلى الإتيان به وسؤاله أمام الناس جميعا ليسمعوا جوابه، ويروا عقوبته: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓـَٔابْرَٰهِيمُ ﴾ فأجابهم جوابا مخالفا لما توقعوه: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ فتعجبوا من هذا الجواب، ورجع بعضهم إلى بعض فتشاوروا، وقالوا: إنكم أنتم الظالمون في نسبة الألوهية لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع. فرمى كل منهم الآخرين بالظلم وبرأ نفسه منه.

ولما لم يكن قصدهم طلب الحق، نكسوا بعد أن اعترفوا بظلمهم، ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الضلال، واستمروا في الجدال العقيم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ وهذه كلمة حق شهدوا بها على أنفسهم، وظهر بها سخافة عقولهم وقصر نظرهم؛ لكونهم مع علمهم بحالها ما زالوا حريصين عليها؛ لذلك أجابهم عليه الصلاة والسلام منكرا عليهم أشد الإنكار، متعجبا منهم، متضجرا: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

فلما أعيتهم الحجة، انتقلوا إلى القوة ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ تآمروا على قتله بأفظع طريقة، لينصروا آلهتهم التي علموا أنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرا ولا نفعا.

ولما اجتمعوا على إحراقه، أمر الله النار فصارت بردا عليه ﷺ، فلم تحرقه، ولم يؤذه البرد، لأن بردها صار سلاما عليه. وهذه عاقبة المؤمن الذي يفوض أمره إلى الله، فقد نصره الله تعالى، وجعل ما أرادوه له من الكيد يعود خسارا عليهم. وأما هو عليه الصلاة والسلام، فقد خرج من بين أولئك القوم، ونجاه الله تعالى هو وابن أخيه لوط إلى الأرض المباركة، وهي الشام. وعوضه عن أهله الذين تركهم لله بابنه إسحاق، وحفيده يعقوب الذين أصلحهم الله، وجعلهم أئمة هدى، يفعلون الخير، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويسارعون إلى كل عبادة تقربهم إلى ربهم جل وعلا. وهذا كله من تأييد الله تعالى لأنبيائه ونصرته لهم. وفي ذكر أولاد إبراهيم عليه السلام تأكيد لمضمون قوله تعالى في بداية السورة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ ﴾ فهو بشر يولد له ويولد.

يقول سيد قطب في خاتمة قصة إبراهيم عليه السلام:" لقد ترك إبراهيم – عليه السلام – وطنا وأهلا وقوما. فعوضه الله الأرض المباركة وطنا خيرا من وطنه. وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله. وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيرا من قومه. وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله، وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. وكانوا طائعين لله عابدين. فنعم العوض، ونعم الجزاء، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم عليه السلام.

لقد ابتلاه بالضراء فصبر، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل." [1]

وفي هذه الخاتمة تثبيت للنبي ﷺ، وبشارة له بحسن العاقبة.

وفي قصة إبراهيم عليه السلام نرى أن همه الأول هو الدعوة إلى الدين الواحد، الذي ما أرسل الرسل إلا من أجل تبليغه للناس، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

وفي قصته رد على شبهات المشركين المنكرين لدعوة الرسل، ولذلك حسن أن يبدأ عرض الأمة الواحدة للرسل بتفصيل قصة إبراهيم عليه السلام، بالإضافة إلى أن جميع الأنبياء بعده –سوى لوط عليه السلام–كانوا من ذريته.

ثم تشير الآيات إلى نعمة الله عز وجل على نبيه لوط عليه السلام، حيث آتاه العلم والحكم، ونصره تعالى ونجاه من قومه الفاسقين الذين كانوا يعملون الخبائث. وهذا نموذج لما ذكر في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

وبعد قصة إبراهيم أبي العرب، جاء ذكر نوح عليه السلام الأب الثاني للبشر، الذي نجاه الله تعالى وأهلك قومه المسرفين.[2]

فيخبر الله تعالى أنه عليه السلام نادى ربه، ونداؤه هو قوله في سورة نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [سورة نوح: ٢٦]. وقوله: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٨٨)

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٣١٧)

﴿١٠﴾ ﴾ [سورة القمر: ١٠]، فاستجاب الله دعاءه، ونصره ونجاه ومن معه من المؤمنين من الطوفان الذي عاقب به المكذبين، فقال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وسمى المؤمنين معه أهلا، وذلك لأن الدين رحم بين أهله، والمؤمنون أمة واحدة على مدار الزمان، وفي كل مكان.

وبقصة نوح عليه السلام تنتهي المجموعة الأولى من قصص الأنبياء، وبرز فيها موقفهم من قومهم المكذبين، ونصر الله تعالى لهم.

المحور الثاني: ذكر قصة نبيين مَلِكَيْن

هذه المجموعة الثانية من قصص الأنبياء، وفيها ذكر نعمة الله تعالى على داود وسليمان عليهما السلام، وتأييده لهما، في توفيقهما في الحكم بين الناس، وتسخير بعض ما في الكون لهما. وقد كان في قصتهما نوع تفصيل بعد الإيجاز الذي جاءت به قصتا لوط ونوح عليهما السلام، وذلك لأنه كان في قصتهما تنبيه على أصل الاجتهاد وعلى فقه القضاء. (١)

قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ عُرضت قضية على داود عليه السلام ليحكم فيها، وذلك أن غنما رعت في حقل ليلا فأتلفت زرعه، فقدم أصحاب الحقل شكواهم إلى داود عليه السلام، فحكم لهم أن يأخذوا الغنم عوضا عن ما فاتهم من بستانهم. فلما علم سليمان عليه السلام بالقضية والحكم قدم حلا مختلفا للقضية، إذ حكم أن يقوم أصحاب الغنم على الزرع الذي أتلفته أغنامهم فيصلحونه، وفي هذه المدة يأخذ أصحاب الزرع الغنم وينتفعوا بثمرتها من الصوف واللبن. فإذا عاد الزرع إلى حاله يعود كل مال إلى صاحبه. فكان هذا الحكم أرفق وأولى، لذلك قال تعالى ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ (٢). ولكن توفيق سليمان عليه السلام في هذه الحادثة ليس فيه نقص من قدر داود لذلك قال: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾.

وبعد ذكر النعمة المشتركة بينهما، ذكر ما اختص به كل منهما، فأخبر أنه سخر الجبال والطير لتسبح مع داود، وقد آتاه الله تعالى حسن الصوت، فكان إذا سبح سبحت معه. وعلمه الله صناعة الدروع ليتحصن الناس بها في الحروب. وفي هذا فضيلة لهذه الصنعة، إذ أسند الله تعالى تعليمها إلى نفسه. وفيها منة منه تعالى على عباده في تعليمهم هذه الصناعة، ولذلك حثهم على شكرها. ﴿ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴾

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١١٥)

(٢) ينظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٣١٧)

وأما سليمان عليه السلام فقد سخر الله تعالى له الريح تحمله إلى حيث شاء، وتعود به إلى مقره في الشام وهي الأرض المباركة [1].

وسخر له من الشياطين من يغوصون له في أعماق البحر ليستخرجوا له كنوزه، ويعملون أعمالا أخرى، ذكرها الله تعالى في سورة ص ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [سورة ص: ٣٧] وفي سورة سبأ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سورة سبأ: ١٣]

وكان الله تعالى هو الحافظ لهؤلاء الشياطين فلا يؤذون سليمان عليه السلام، ولا يفسدون أعمالهم.

وكانت هذه النعم لداود وسليمان عليهما السلام ابتلاء لهما، كما أخبر الله تعالى عن سليمان عليه السلام أنه: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل: ٤٠]، وقد أثنى الله تعالى عليهما فقال عن كل واحد منهما: ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص: ١٧، ٣٠].

فقد كانا عابدين لله، موحدين ومعظمين له سبحانه، ولذلك ذكرت قصتهما في معرض ذكر الأمة الواحدة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٧٠)

المحور الثالث: الإشارة إلى نماذج من صبر الأنبياء.

بعد أن ضربت الآيات مثالا على ما أخبرت عنه في قوله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ بذكر ابتلاء الله تعالى لداود وسليمان بالخير، وما قابلاه به من الشكر، تأتي مجموعة من الآيات بذكر ابتلاء أيوب ويونس وزكريا عليهم الصلاة والسلام بالضر، وصبرهم، وتأييد الله تعالى لهم وحسن عاقبتهم، ويشير السياق أثناء ذلك إلى بعض الصابرين مثنيا عليهم، فيقول تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

كان أيوب عليه السلام قد أوتي عافية ومالا وولدا، ثم ابتلاه الله تعالى بفقد هذه النعم تباعا، فمات أولاده، وتلف ماله، وأصيب بدنه حتى لم يبق معه أحد إلا زوجته التي كانت تعينه وتخدمه، فلما طال عليه البلاء نادى ربه نداء الحيي من ربه، المنكسر له، المتأدب معه في الدعاء، فقال:﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ "فألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب" [1].

وسرعان ما جاءت الاستجابة من الله تعالى الرحيم بعبده، قال عز وجل: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ "رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح. ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم." [2] وهذه الاستجابة، وهذا العوض، هو رحمة من الله عز وجل.

وفي قصة أيوب عليه السلام" من العبر والدلائل ما ليس في غيرها؛ لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك، وتعريفا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى، ويصبر على حالتي الضراء والسراء "[3] ولهذا ختمت الآية ببيان أن في قصته ذكرى للعابدين، وذلك لقوة إيمانه بربه، وصبره، وحسن دعائه.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ٢٠٩)

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٢٩)

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ٢٠٣)

ثم تشير الآيات إلى بعض الصابرين، فيقول تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ كانوا من الصابرين، فأثنى الله عليهم بصفة الصبر، وأدخلهم في رحمته لصلاحهم. فالمؤمنون الصالحون أمة واحدة.

ثم يخبر الله تعالى عن يونس عليه السلام، الذي لما دعا قومه إلى الله تعالى فلم يؤمنوا، لم يصبر عليهم، وخرج من بينهم قبل أن يأذن الله له، فالتقمه الحوت وهو النون، فلما صار في بطن الحوت، وتكاثرت عليه الظلمات، نادى نداء المعترف بكمال ألوهية ربه عز وجل، المعترف بذنبه، النادم عليه، الطامع في رحمة ربه ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١)

ويأتي العطف بالفاء مرة أخرى ليخبرنا أن الإجابة جاءت سريعا: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نجاه الله تعالى من بطن الحوت، ووعد المؤمنين أن ينجيهم من الغم إذا دعوه." وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم" (٢)

ومضمون دعاء يونس عليه السلام هو دعوة الأنبياء جميعا، كما قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وسبب غضبه من قومه هو رفضهم للتوحيد الذي دعاهم إليه.

ثم تأتي قصة زكريا عليه السلام، الذي كان موحدا لربه، سائرا على ملة الرسل، وكان صابرا على تأخر الولد، حتى إذا كبر سنه زاد اشتياقه للولد الذي يقوم من بعده على حماية الدين، فدعا ربه، وأثنى عليه ثناء مناسبا للمسألة: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

فاستجاب الله دعاءه، وأصلح زوجته فحملت بعد أن كانت عاقرا، ووهب له يحيى عليه السلام. وأثنى الله تعالى عليهم ، بأنهم كانوا –كسائر الأنبياء يسارعون في طاعة الله فسارع الله في استجابة دعائهم. وكان دافعهم إلى طاعته الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه، وكانوا–

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٩)

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ١٣٣)

لكمال عبوديتهم -خاشعين متذللين لله تعالى وحده. فهم أمة واحدة، مجتمعون على التوحيد وحسن العبادة والطاعة.

بهذا انتهت مجموعة أخرى من قصص الأنبياء، وهي قصة أيوب، ويونس، وزكريا عليهم الصلاة والسلام. ويبرز في قصصهم كمال توحيدهم، والتجاؤهم إلى ربهم تعالى بالدعاء، وتأدبهم معه. لأنه قد أوحى إليهم ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ .

وتختم سلسلة الأنبياء بالإشارة إلى آخرهم قبل محمد ﷺ، وهو عيسى عليه السلام الذي كان كتابه أعظم كتاب بعد التوراة التي ابتدأ بصاحبها ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، [1] فيبين الله تعالى أنه قد جعله آية حيث ولد بدون أب، ويبدأ الحديث عنه بالثناء على أمه مريم عليها السلام: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فقد كانت عابدة عفيفة، حفظت نفسها عن ما لا يرضي الله تعالى، فجعلها الله تعالى آية حيث حملت بدون زوج، وجعل ابنها آية حيث ولد بلا أب، وتكلم في المهد، وأعطي شيئا من علم الغيب، وشفاء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، كل ذلك بإذن الله، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي ﴾[سورة المائدة: ١١٠]. "فكانت- مريم -وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلا بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون " [2]

وفي ذكر العطاء الكبير لداود وسليمان عليهما السلام، وذكر ابتلاء أيوب عليه السلام بعد ذلك مباشرة تعديل للتصورات الخاطئة عن الرسول. كما جاء في بداية السورة تعديل لتصورهم أن الرسول لا ينبغي أن يكون بشرا.

وفي قصص الأنبياء تتكرر الأدلة على قوله تعالى في مطلع السورة ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ ، فأخبر عن حال كل نبي منهم خبر العالم بهم، وأخبر عن استجابته دعواتهم استجابة السميع لأقوالهم سبحانه وتعالى. [3]

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٨)

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٣٠)

(٣) ينظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى (٧/ ٣٤٨٦- ٣٤٨٧)

المحور الرابع: التأكيد على وحدة الملة بين الرسل

وبعد هذا العرض لأمة الأنبياء، تختم آيات الموضوع بالتأكيد على وحدة الملة، ووحدة الدعوة بينهم جميعا. فهم أمة واحدة ولو اختلفت أزمانهم. وإذا كان الدين واحدا، والرب واحدا سبحانه وتعالى، وجب إفراده بالعبادة.

يقول سيد قطب:" وفي نهاية الاستعراض الذي شمل نماذج من الرسل، ونماذج من الابتلاء، ونماذج من رحمة الله – يعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ إن هذه أمتكم. أمة الأنبياء. أمة واحدة. تدين بعقيدة واحدة. وتنهج نهجا واحدا. هو الاتجاه إلى الله دون سواه. أمة واحدة في الأرض، ورب واحد في السماء. لا إله غيره ولا معبود إلا إياه. أمة واحدة وفق سنة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء.

وهنا يلتقي هذا الاستعراض بالمحور الذي تدور عليه السورة كلها وتشترك في تقرير عقيدة التوحيد، تشهد بها مع سنن الكون وناموس الوجود" [1]

وقال الطاهر ابن عاشور: أمة واحدة" توحد الله تعالى فليس دونه إله. وهذا حال شرائع التوحيد. وبخلافها أديان الشرك فإنها لتعدد آلهتها تتشعب إلى عدة أديان لأن لكل صنم عبادة وأتباعا وإن كان يجمعها وصف الشرك" [2] ولهذا قال محذرا مما فعل المشركون، وموبخا لهم﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ ثم ختم الآية بتحذيرهم، وأخبر أنهم راجعون إليه فمحاسبهم. ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ وهذه الجملة هي افتتاح للموضوع الأخير في السورة، حيث تدور باقي آيات السورة حول تفصيل هذه الجملة.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٣٩٥، ٢٣٩٦)

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ١٤١)

المبحث الرابع

بيان عاقبة المؤمنين والكافرين.

المبحث الرابع: بيان عاقبة المؤمنين والكافرين.

جاء هذا الموضوع في الآيات (٩٤- ١١٢):

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

لما ختمت آيات الموضوع السابق بالخبر عن تفرق المشركين في الدين، وبذكر الرجوع إليه سبحانه بالبعث، بينت آيات هذا الموضوع جزاء المؤمنين والكافرين في يوم البعث، وذكرت بعض مقدماته، وشيئا من أحداثه.

فافتتحت آيات الموضوع بالإشارة إلى جزاء المؤمنين، وأنهم إذا عملوا الصالحات فإن سعيهم يشكر ولا يكفر، ويكتبه الله لهم ويجازيهم الله تعالى عليه أحسن الجزاء، ومفهوم الآية

الذي صرح به في آيات أخرى أن من لم يؤمن يعاقب. وحسُن ذكر جزاء المؤمنين بعد ذكر قصص الأنبياء ترغيبا في اتباعهم.

ثم ذكرت الآيات أحد مقدمات يوم القيامة، وهو خروج يأجوج ومأجوج، إذا فتح السد الذي حبسهم ذو القرنين خلفه، وانتشارهم في الأرض، وسعيهم بالإفساد فيها. كما أخبر عنهم الرسول ﷺ في عدة أحاديث، نذكر منها ما مارواه النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدثهم عن الدجال ثم قال: " ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك وردي بركتك... " الحديث [1].

فإذا خرج يأجوج ومأجوج، فقد اقتربت الساعة التي إذا قامت ورأى الكفار العذاب فيها شخصت أبصارهم من هول ما يرونه، وندموا على غفلتهم وإعراضهم عن الحق حين جاءهم. وفي هذا تحذير شديد للمعرضين الذين ذكروا في بداية السورة، الذين هم ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ولذلك يعترفون على أنفسهم بالظلم حين لا ينفعهم الاعتراف، بل يقال لهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ، فتلك الآلهة التي صددتم عن الإيمان لتمسككم بها، ستصير وقودا للنار معكم، وستردون أنتم وهي النار لتعلموا شدة عجزها وحقارتها، إذ لو كانت آلهة لم تلقى حطبا للنار. والمشركون خالدون فيها مع آلهتهم، لكن هذا لا يخفف عنهم، ولا يسليهم عن ما هم فيه، لأن كلا منهم منشغل بنفسه، لا يسمع غيره ولا يشعر به.

هذه عاقبة المكذبين، وأما عاقبة المؤمنين الذين كتب الله لهم السعادة، وسبقت لهم من الله تعالى الحسنى، فهم مبعدون عن ذلك كله، لا يرون جهنم، ولا يسمعون حسيسها، لأنهم

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال ح (٧٥٦٠) .

منشغلون في الجنة بما تشتهيه أنفسهم. وهم معصومون من الفزع الأكبر فلا يحزنهم، لأن الملائكة تتلقاهم بالبشرى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

وتذكر الآيات استطرادا بعض التغير الذي يحصل للكون في يوم الحساب، فالسماء تطوى كما يطوى الكتاب، ويعيد الله الكون كما بدأه أول مرة.

ثم يأتي التأكيد للعاقبة الحسنة للمؤمنين: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ فالجنة لا يرثها إلا المؤمنون.

وتختم السورة بمجموعة آيات لخصت الموضوعات التي جاءت بها هذه السورة الكريمة، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ جاء ببيان انتفاع المؤمنين من القرآن، في مقابل موقف الكفار الذين أخبر عنهم في مطلع السورة الكريمة بقوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فالمؤمنون ينتفعون بالقرآن ويتذكرون به ويكون فيه البلاغ لهم، وأما المعرضون فهم لاهون عنه لا ينتفعون به.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ بيان لحقيقته ﷺ في مقابل افتراءاتهم عليه في قولهم: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ وقولهم: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ .

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تأكيد للمعنى الذي جاءت السورة لتقريره، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع الرسل، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ، وقال بعد قصص الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

وفي قوله عز وجل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ خطاب للمعرضين الذين أخبر عنهم في بداية السورة الكريمة، فبعد أن بين لهم في السورة الأدلة على صحة ما جاء به؛ تبرأ منهم لما لم يؤمنوا، وأعلن حالة الحرب معهم.

والمناسبة بين تتمة الآية ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ وبين قوله تعالى للمستعجلين: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ظاهرة.

ثم تأتي جملة: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ مؤكدة لقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

ثم يعود السياق لبيان أن تأخير العذاب فتنة وإمهال، فيقول تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وفي ذلك رد على المستعجلين الذين ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .ولما افتتحت السورة الكريمة بذكر حال المكذبين عند مجيء الإنذار، ختمت بموقف المنذر لهم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

"هنا يتوجه الرسول ﷺ إلى ربه. وقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة. وآذنهم على سواء، وحذرهم بغتة البلاء.. يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم. وهو وحده المستعان. وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول. فهو الذي أرسله رحمة للعالمين، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزءون. وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون.

وبهذا المقطع القوي تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوي. فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوي مثير عميق" (١)

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ٢٤٠٣)

الفصل الثالث:

تفسير آيات سورة الإنبياء إجمالياً

في ضوء تناسقها الموضوعي

الفصل الثالث

تفسير آيات سورة الإنبياء إجمالياً في ضوء تناسقها الموضوعي

قال تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١].

اقترب من الناس الوقت الذي يجازون فيه على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، ونعمهم التي أنعمها الله تعالى عليهم في أبدانهم، وأجسامهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، وسؤاله إياهم ماذا عملوا فيها؛ وهل أطاعوه أم عصوه فيها؟ اقترب الحساب من الناس عموماً لأن ما بقي من عمر الدنيا أقل مما مضى فالساعة قريبة، واقترب حساب كل إنسان لأن الإنسان ميت مهما طال عمره، ومن مات قامت قيامته. ﴿ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا التفكر فيه، والاستعداد له. "ولما أخبر سبحانه عن غفلتهم وإعراضهم، علل ذلك بقوله: ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ ﴾أي قصدوا سماعه وهو أجد الجد بالاستهزاء به ووضعه في غير موضعه، وهو قريب من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [سورة فصلت: ٢٦]" [(١)] فالكفار منغمسون في الغفلة عن يوم الحساب، وعن كل ما يذكرهم به وإذا انتبهوا من هذه الغفلة أعرضوا عن الهدى الذي يُدعون إليه [(٢)].

﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣].

كلما نزلت آيات من القرآن وتليت عليهم أعرضوا عنها، فأبدانهم: لاعبة، وقلوبهم: لاهية، وألسنتهم: تتآمر خفية بالسوء على القرآن ومبلّغه ﷺ [(٣)]. قال تعالى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣]. ولما أخبر بسوء ضمائرهم، بين العلة الحاملة لهم على ذلك فقال: (الذين ظلموا) ثم بين ما تناجوا به فقال: (هل هذا إلا بشر مثلكم...) هذا الرسول بشر فبمَ يفضل عليكم؟ ولم

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٦٥)

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٢١)، الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٢٦)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٣٩- ١٤١)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٥)

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٨)

اختص بالوحي دونكم؟ وما جاء مما لا تقدرون على مثله إنما هو سحر، أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ ولذلك قالوا: ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ بأعينكم أنه بشر مثلكم، وببصائركم أن هذه الخوارق التي يأتي بها يمكن أن تكون سحراً [1].

ولما كان الله تعالى لا يقر من كذب عليه، فضلاً عن أن يصدقه ويؤيده، ولا يخفى عليه كيد الكائدين، قال دالاً لهم على صدقه منبهاً على موضع الحجة في أمره... (قال ربي) المحسن إليّ بتأييدي بكل ما يبين صدقي ويحمل على اتباعي ﴿ يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ سواء كان سراً أو جهراً. ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يجمع السماء والأرض لأن من يسمع من هاتين المسافتين يسمع من أيّ مسافة فرضت غيرهما قطعاً، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾: يسمع ما أنسبه إليه من هذا الذكر، فلو لم يكن عنه لزلزل بي، وقد جرت سنته القديمة في الأولين، بإهلاك المكذبين، وتأييد الصادقين وإنجائهم، من زمن نوح عليه السلام إلى هذا الزمان[2].

ولما كانوا قد قالوا هذا القول سراً فيما بينهم، أمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم ويخوفهم بأنه عز وجل يعلم القول سره وجهره، لا ينفعهم أن يسروا قولهم الباطل لأن الله مطّلع عليه مهما بالغوا في إخفائه. فهو سبحانه ذو السمع الواسع الشامل لكل مسموع، العليم بكل ما في الأرض والسماوات[3]. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤].

وهؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ، لا يعرفون ما جاء به لأنهم معرضون عنه، فلهذا اضطربوا وحاروا كيف يصفون هذا القرآن[4]، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٥].

ولما كان وصفهم له بأنه سحر مما يهول السامع ويعلم منه أنه معجز، وربما أدى إلى طلب الاستبصار في أمره، أخبر أنهم نزلوا به عن رتبة السحر على سبيل الاضطراب فقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ولما كانوا يصفون القرآن بجميع هذه الأوصاف جملة، يقولون لكل شخص ما رأوه أنسب له منها، نبه الله سبحانه كل من له لب على بطلانها بتناقضها بحرف الإضراب إشارة إلى أنه كان يجب على من قالها على قلة عقله

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٦٦)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٦٦)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٢٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢١٩)

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٦)

وعدم حيائه أن لا ينتقل إلى قول منها إلا بعد الإعراض عن الذي قبله، وأنه مما يضرب عنه لكونه غلطاً، ما قيل إلا عن سبق لسان وعدم تأمل، ستراً لعناده وتدليساً لفجوره، ولو فعل ذلك لكانت جديرة بانكشاف بطلانها بمجرد الانتقال فكيف عند اجتماعها. فزعموا أنه أضغاث أحلام، وكيف يكون هذا القرآن العظيم المحكم الذي ليس فيه أي اختلاف مثل أوهام النائم؟! ولما رأوا أن هذا الاتهام أضعف من أن يصدق انتقلوا إلى اتهام آخر، فقالوا (بل افتراه) زعموا أن النبي اختلقه من عند نفسه، وهذا ظاهر البطلان لمن يرى فصاحة وإحكام القرآن الذي عجز البشر عن الإتيان بمثله، وإذا كان النبي ﷺ افتراه فلمَ لا يأتون هم بآيات يفترونها؟ وقد تحداهم القرآن على مراحل أن يأتوا بمثل القرآن لكنهم عجزوا. ثم أضرب الكفار عن قولهم السابق، وزعموا أن الرسول شاعر، وأن ما أتى به من جنس الشعر، وهذا الاتهام ليس أقوى من الاتهامات السابقة بل هو أضعفها شأناً، وأوضحها بطلاناً، ولذلك لم يحتج إلى إضراب عنه.[1]

ولما قدحوا في القرآن الكريم، الذي هو أعظم المعجزات، جعلوا هذا القدح منهم سببا لأن يطلبوا آية، فقالوا: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ ﴾[2] تعنتوا فطالبوا الرسول ﷺ بآية مادية كآيات الرسل السابقين، وكأنهم جهلوا أن الأمم التي جاءتها الآيات وكفرت بها قد حل بها عقاب الله عز وجل، وإذا كانت الأمم السابقة لم تؤمن بالآيات التي جاءتها، فبم يفضل هؤلاء أولئك؟ وهم ليس فيهم من الخير ما يدعوهم إلى الإيمان إذا جاءتهم الآيات؛ لذلك قال تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٦][3].

ولما أجابهم على طلب الآيات بإخبارهم أنها تكون سبباً للهلاك إذا لم يؤمنوا، فلا فائدة في الإجابة إلى ما اقترحوه منها بعد بطلان ما قدحوا به في القرآن، بيّن ثانياً بطلان ما قدحوا به في الرسول بكونه بشراً، بأن الرسل الذين كانوا من قبله كانوا بإقرارهم من جنسه، فلم ينكرون رسالته وهو مثلهم؟[4] فقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧] فجميع الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بشراً، وإذا كنتم لا تعلمون ما كانوا فاسألوا أهل العلم من طوائف الأمم قبلكم من

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥ / ٦٧)

(٢) المصدر السابق (٥ / ٦٧)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٢٧)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٦)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٩)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٦٨، ٦٩)

اليهود والنصارى: هل كان الرسل الذين بعثوا فيهم ملائكة؟ وإذا كنتم لا تنكرون بشرية الرسل السابقين فلم تكفرون بنبوة محمد ﷺ وتردون دعوته لأنه بشر؟ وكل الأنبياء قبله كانوا بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره[1]. لذلك لما بين أنه على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلاً، بين أنه على سنتهم في جميع الأوصاف التي حكم بها على البشر من العيش والموت فقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ بل ماتوا كما مات الناس قبلهم وبعدهم، أي لم يكن تميزهم في أبدانهم، وإنما تميزوا عن الناس بما يأتيهم عن الله سبحانه. ورسولكم ﷺ ليس بخالد، فتربصوا كما أشار إليه ختم طه فإنه متربص بكم وأنتم عاصون للملك الذي اقترب حسابه لخلقه وهو مطيع له، فأيكم أحق بالأمن؟ [2]

لهذا قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨].

"ولما بين أن الرسل كالمرسل إليهم بشر غير خالدين، بين سنته فيهم وفي أممهم ترغيباً لمن اتبع، وترهيباً لمن امتنع، فقال عاطفاً بأداة التراخي على ما أرشد إليه التقدير من مثل: بل جعلناهم جسداً يأكلون ويشربون، ويعيشون إلى انقضاء آجالهم ويموتون، وأرسلناهم إلى أممهم فحذروهم وأنذروهم وكلموهم كما أمرناهم، ووعدناهم أن من آمن بهم أسعدناه، ومن كفر واستمر أشقيناه، وأنا نهلك من أردنا من المكذبين، فآمن بهم بعض وكفر آخرون؛ فلم نعاجلهم بالأخذ بل صبرنا عليهم، وطال بلاء رسلنا بهم ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩] ... أي بإنجائهم. وأشار بأداة التراخي إلى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم، ثم أحل بهم سطوته، وأراهم عظمته، ولذا قال مسبباً عن ذلك: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ " [3]

ينبه الله تعالى الناس في هذه الآية إلى أن ما ينبغي أن يبحثوه ليس جنس الرسل، بل مدى صدقهم، وما عاقبتهم. فالله عز وجل اقتضت سنته أن رسله منصورون، وأعداءهم معذبون، وأن أتباع الرسل ينجون من العذاب والهلاك النازل بالمسرفين المكذبين، وفي هذا تحذير للمكذبين برسول الله ﷺ من مصير كمصير أسلافهم إن استمروا في كفرهم.

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٢٨)، معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣١١)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥١٩) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١٩)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٦٩)

(٣) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٦٩، ٧٠)

ولما ألزمهم بالإقرار بنبوة محمد ﷺ لإقرارهم بنبوة الأنبياء قبله، وهم من البشر، فهو مساوٍ لهم في النوع والإتيان بالمعجز، وأخبر عن ما فعل بهم وبأممهم ترغيباً وترهيباً، وختم ذلك بأنه أباد المسرفين، ومحا ذكرهم إلا بالشر، التفت إلى الذكر الذي طعنوا فيه، فقال معرضاً عن جوابهم لأن ما طعنوا به فيه لا يقوله عاقل، مبيناً لما لهم فيه من النعمة التي هم بها كافرون: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقيل. [1]

فالقرآن شرف ورفعة للعرب في الدنيا والآخرة إن اخذوه بقوة، وآمنوا به وعملوا به[2] " ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا. فلم يكن لهم قبله ذكر، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به. ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب، وقادوا به البشرية قرونا طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب "[3]

ثم نبه أنه يتعين على كل ذي لب الإقبال عليه والمسارعة إليه، فحسن قوله منكراً عليهم منبهاً على أن علم ذلك لا يحتاج إلى غير العقل المجرد عن الهوى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[4] .

"وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول ﷺ، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد. كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسا، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعة، والتدسية، والشقاوة" [5] فإن أخذتم أيها العرب بهذا القرآن سعدتم في الدنيا والآخرة، وإن تركتموه هلكتم كما هلكت الأمم المكذبة من قبلكم؛ ولذلك جاءت الآيات التالية تبيّن سنة الله عز وجل في إهلاك المكذبين ونصر الرسل وأتباعهم، كأن التقدير فإن عدلتم بقبوله شرفناكم، وإن ظلمتم برده عناداً أهلكناكم كما أهلكنا من كان قبلكم [6]، عطف عليه قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٠، ٧١)

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٠)

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٧٠)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٠، ٧١)

(٥) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٠)

(٦) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٠، ٧١)

ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١١ – ١٥].

بدات الآيات ببيان كثرة القرى التي كان ذلك حالها، ودل على كثرتها أداة (كم) التي تفيد التكثير هنا، فكثير من القرى كفر أهلها بربهم جل وعلا، وبين تعالى سبب إهلاكها بقوله: ﴿ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ ﴾ حيث كذبوا رسلهم فقصمهم الله تعالى،أي: حطمهم وهشمهم(١) وأهلكهم إهلاكاً تاماً لا رجوع بعده إلى يوم القيامة. ثم بين أن المهلكين ضروا أنفسهم والله تعالى غني عنهم فقال: ﴿ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ﴾ ، أسكن في قراهم قوما غيرهم لا قرابة قريبة بينهم وبين المهلكين، ولهذا وصفهم بقوله: ﴿ ءَاخَرِينَ ﴾ (٢). أما أولئك المكذبين فإنهم لما رأوا عذاب الله، وتيقنوا أنه واقع بهم ركضوا هاربين من القرية مسرعين يريدون النجاة من عذاب الله (٣). هربوا من القرية مسرعين من غير توقف وهم الذين تجبروا على رسلهم وقالوا لهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[سورة إبراهيم: ١٣](٤)](٤)

ولما كان أعظم ما يؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكن، قيل لهم تهكماً واستهزاء بهم: ﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ .

لا تركضوا ولا تهربوا من العذاب بل ارجعوا إن استطعتم إلى بيوتكم ومساكنكم الفارهة، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم الذي أطغاكم وحملكم على الكفر، ارجعوا إلى ذلك لعلكم تسألون عمّا آل إليه ذلك النعيم فتخبروا السائل عن علم ومشاهدة، ولعلكم تسألون وتقصدون كما كنتم تقصدون من قبل في المهمات(٥)، كما يكون الرؤساء في مقاعدهم العلية، ومراتبهم البهية، فيجيبون سائلهم بما شاءوا على تؤدة وأحوال مهل تخالف أحوال الراكض

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (٦٧٣)

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١٢٢٠)، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٠- ٧١)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٠)، في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٧٠)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٣٣- ٢٣٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٢٤)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧١)

(٥)ينظر: الكشاف للزمخشري(٢/ ٥٦٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٠)، فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٥٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٢٧)

العجل. وفي هذا مزيد تهكم وسخرية بهم. وبني للمفعول قوله ﴿ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ لأن الأسى إنما هو على العيش الرافه لا على كونه من معط معين،وفيه إشارة إلى غفلتهم عن العلم لمن أترفهم، أو إلى أنهم كانوا ينسبون نعمتهم إلى قواهم، ولو عدوها من الله لشكروه فنفعهم[1].

وعندما يحل بهم العذاب " يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط. وأنه لا ينفعهم ركض، ولا ينقذهم فرار. فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾. ولكن لقد فات الأوان، فليقولوا ما يشاءون، فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ ويا له من حصيد آدمي، لا حركة فيه ولا حياة وكان منذ لحظة يموج بالحركة، وتضطرب فيه الحياة " [2]

"ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجاد بإحقاق الحق بالانتقام لأهله، وإزهاق الباطل باجتثاثه من أصله، فكان التقدير: وما ينبغي لنا أن نفعل غير ذلك من أفعال الحكمة العرية عن اللعب، فلم نخلق الناس عبثاً يعصوننا ولا يؤاخذون، عطف عليه قوله:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٦ – ١٨]" [3]

بين الله تعالى في بداية السورة كيفية تلقي المشركين للوحي، وأنهم يستقبلونه باللهو واللعب، ولكن الكون بسماواته وأرضه لم يخلق للعب، بل خلقه الله تعالى لعبادته، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [سورة النجم: ٣١] فمن أطاع الله أثابه ومن عصاه عاقبه. وفي هذا تنبيه أن ما حكاه من العذاب النازل بأهل القرى من مقتضيات حكمته، فلا يترك الخلق هملا بلا جزاء على أعمالهم، لأن هذا من اللهو الذي لا يليق بحكمة خالقهم سبحانه وتعالى. ولما نفى عنه اللعب، أتبعه دليله [4] فقال: (لو أردنا) فلو أراد الله تعالى أن يتخذ ما يتلهى به ويلعب، لاتخذه من عنده، ولم يطلع الناس عليه. لكنه عز وجل لا

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧١)

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٧١)

(٣) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٢)

(٤) المصدر السابق (٥ / ٧٣)

يتخذ اللهو كما يظن أهل الباطل، بل شأنه أن "يرمي رمياً شديدًا (بالحق) الذي هو هذا الذكر الحكيم الذي هو حق كله، لا لهو فيه ولا باطل، ولا هو مقارب لشيء منهما، ولا يصلح أن يتخذ شيء منه لهواً. فيقذف الله بهذا الحق (على الباطل فيدمغه) اي فيمحقه محق المكسور الدماغ (فإذا هو) في الحال (زاهق) ذاهب الروح هالك" [1]. فالله تعالى يبين الحق بيانا تاما يدحض به الباطل فيضمحل ولا تقوم له قائمة. وأما المتكلمون بالباطل فتوعدهم عز وجل بالويل جزاء لهم على ما افتروه من نسبة النقص له سبحانه وتعالى. [2]

ومن الأمور التي توعدهم بالويل لأجلها: شركهم بالله تعالى، لذلك عطف على الوعيد ذكر سببه [3] فقال: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٩ - ٢٠]

وكيف يكون له سبحانه وتعالى ولد أو شريك مع أنه ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ فجميع المخلوقات له تعالى خاصة [4] "خلقاً ومُلكاً وتدبيراً وتصرفاً وإحياءً وإماتةً وتعذيباً وإثابةً من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالاً أو استتباعاً"[5] " وكل من في السماوات والأرض عبيده، فأنى يكون له صاحبة وولد؟"[6].

ومن الأمور التي توعدهم بالويل لأجلها: وصفهم الملائكة بما لا يليق بالله تعالى، لذلك خصهم بالذكر معبراً عن خصوصيتهم وقربهم [7] فقال تعالى ﴿ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾ وهم الملائكةُ عليهم السلام، ﴿ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ لا يستكبرون عن عبادة الله عز وجل مع أنهم من أفضل خلقه، بل يعبدونه آناء الليل وأطراف النهار، لا يسأمون العبادة أو يملونها، ولا يتعبون منها مع كونهم يداومون عليها. وفي هذا رد على من زعم أن الملائكة بنات الله تعالى، لأنهم عباد الله عز وجل [8].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٣)

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢١)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٠)

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٧٤)

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٧)

(٥) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ١٦)

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٤٢).

(٧) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٤)

(٨) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٤٢- ٢٤٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢١)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ١٦)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٧)

وبعد أن بيّن عز وجل سعة ملكه وشموله لكل المخلوقات وخضوع كل شيء لعظمته، "كان المشركون عند هذا البيان جديرين بأن يبادروا إلى التوحيد فلم يفعلوا، وكانوا حقيقين بعد الإعراض عنهم – بالتوبيخ والتهكم والتعنيف" [1]

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢١ – ٢٣].

أنكر على المشركين الذين يتخذون مع الله عز وجل الكامل من كل وجه، يتخذون معه آلهة في غاية العجز وعدم القدرة، فهي عاجزة عن نفع نفسها فضلاً عن نفع عابديها ولذلك تصير مع عابديها وقوداً لجهنم كما سيأتي إن شاء الله في آخر السورة.

وقوله: (من الأرض) لأن معبوداتهم كانت أصناماً أرضية من حجارة ونحوها. (هم) أي خاصة (ينشرون) أي يحيون شيئاً مما فيها من الأجسام النامية حتى يستحقوا بذلك صفة الإلهية، وإفادة السياق الحصر في قوله (هم ينشرون) تفيد أنه لو وقع الإنشاء لأحد على وجه يجوّز مشاركة غيره له لم يستحق العبادة، وفي هذا الاستفهام تهكم بهم بالإشارة إلى أنهم عبدوا ما هو من أدنى ما في الأرض مع أنه ليس في الأرض ما يستحق أن يعبد، لأن الإنسان أشرف ما فيها، ولا يخفى ما له من الحاجة المبعدة من تلك الرتبة الشماء. ولما كان الجواب قطعاً: لم يتخذوا آلهة بهذا الوصف، ولا شيء غيره سبحانه يستحق وصف الإلهية، أقام البرهان القطعي على صحة نفي إله غيره ... فقال: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [2] فالكون لا يصلح أن يكون له إلا إله واحد ورب واحد، أما لو كان في السماوات والارض رب سوى الله لفسد نظامهما ولم يكونا على ما يراه الناس من الإحكام والإتقان والانتظام وخلوّهما من الاضطراب والخلل والفساد، فلو كان للكون ربّان لحصل الفساد فيه، لأن كلا منهما يريد أن يفعل ما يشاء في الكون، وقد تتضارب الإرادتان وتختلفان فيحصل الخلل الكبير في الكون [3]

وما دام الناس يرون أن السماء والارض لم تفسدا، بل هما في غاية الإحكام والإتقان، فليس للكون رب سوى الله سبحانه وتعالى عمّا يصف ويفتري الظالمون، الذين عبدوا مع الله غيره، مع أنه سبحانه له العظمة الكاملة، والسلطان التام على كل خلقه، "﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٧٥)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٧٥)

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢١)

ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ثم علل ذلك بقوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ " [1] لا يسأله سائل عن ما فعل، أما العباد فيُسألون ويحاسبون على أعمالهم. وفي هذا مزيد من الإنكار على الكفار الذين اتخذوا آلهة من دون الله، لأن من يسأل عن أعماله لا يصلح أن يكون إلهاً [2].

ولما كان بعض المشركين قد تمسك بعبادة معبوداته الباطلة رغم البراهين العقلية المذكورة، أمر الله عز وجل نبيه أن يطالبهم بالدليل النقلي على صحة عبادة تلك الأصنام [3] فقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٤].

هل عندهم دليل مما جاء به الأنبياء السابقون على صحة عبادة هذه الأصنام؟ كلا، فهذا القرآن الذي نزل إلى محمد ﷺ، وهذه الكتب التي أنزلت على الأنبياء قبله كلها جاءت بالتوحيد ونبذ الشرك[4]. ولما كانوا لا يجدون شبهة لذلك فضلاً عن البرهان اقتضى الحال الإعراض عنهم، فقال: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ، ولو أقبلوا على الذكر لعلموا أن الله أوحى إلى نبيه ﷺ في هذا الذكر أنه لا إله إلا هو، وهي دعوة كل الرسل.[5] لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥]. فما أرسل الله من رسول إلا كان أساس دعوته أنه لا إله إلا الله، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده دون سواه. فهو عز وجل لكمال ألوهيته مستغن عن الأعوان والأولاد. [6]. "ولما دل على نفي مطلق الشريك عقلاً ونقلاً، فانتفى بذلك كل فرد يطلق عليه هذا الاسم، ذكر ادعائهم الشركة المقيدة بالولد" [7] فقال عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٦ – ٢٩].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٦)

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٥٨)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢١)

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٥٨)، نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٧٦)

(٤) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢١)

(٥) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٧)

(٦) تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢١)

(٧) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٧٧)

ذكر سبحانه وتعالى الدعوى الباطلة، ثم نزه نفسه عما وصفه به الظالمون، ثم بدأ ببيان حقيقة الملائكة، فهم ليسوا كما زعم المشركون، بل هم عباد الله تعالى، لا يتميزون عن خلقه إلا بعبادتهم له جل وعلا، وعبوديتهم له سبحانه هي التي جعلتهم مكرمين عنده، ومن عبوديتهم أنهم متأدبون مع ربهم عز وجل غاية الأدب، فلا يقولون قولا حتى يأمرهم به ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ إذا أمرهم بأمر امتثلوا وبادروا إلى العمل به، فلا يتخلفون عن تنفيذ أمر الله أبدا؛ لأنهم يعلمون أن الله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يعلم ماضيهم ومستقبلهم، ومن تمام أدبهم مع الله وعبوديتهم له أنهم ﴿ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ وهم أهل لا إله إلا الله، ومع هذا الاجتهاد في العبادة فإنهم يخشون ربهم عز وجل ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ فلا يُظن أن يتجرأ أحد منهم على ادعاء الألوهية، ولو فرض أن أحدهم ادعى ذلك، فلن تنفعه عبادته السابقة، ولا علو منزلته عند الله، بل يكون جزاؤه جهنم والعياذ بالله، وهي جزاء كل من ادعى هذه الدعوى الظالمة[1]"وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية" [2]

"ولما نفى الشريك مطلقاً ثم مقيداً بالولدية، أتبعه –في هذه الآية– التهديد على ادعائه بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع"[3]. فقال: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

وبعد إثبات كذب دعوى من نسب لله الولد، تنتقل الآيات إلى طريقة أخرى في إثبات التوحيد، فتلفت الآيات أنظار الكفار المتخذين شريكا مع الله إلى عظيم قدرته عز وجل في خلق الكون خلقا محكما لا يقدر عليه أحد غير الله، فكيف يعدل عن عبادته إلى عبادة غيره؟[4]. يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٥١- ٢٥٢)، نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٧٨) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٦٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٢)

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٢)

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥ / ٧٨)

(٤) مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٦١)

﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠ - ٣٣].

يدعوهم الله عز وجل إلى النظر في السماوات والأرض بأعينهم وقلوبهم فيرون أن السماء كانت رتقاء لا تمطر، والأرض جدباء لا تنبت، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبت، فتحيا الأرض الميتة بالماء النازل من السماء، ولذلك ختمت الآية يقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣] "كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا"(١)، فأصل كل المخلوقات الحية هو الماء، ثم تتنوع أنواعا عديدة مختلفة الأصناف والوظائف.

وفي هذا آية عظيمة لمن نظر طالبا الحق، آية على عظمة الخالق، وعلى وحدانيته، ولهذا ختم الآية "بإنكار عدم إيمانهم فقال: (أفلا يؤمنون) أي بأن شيئاً منهما أو فيهما لا يصلح للإلهية، لا على وجه الشركة ولا على وجه الانفراد، وبأن صانعهما ومبدع النامي من حيوان ونبات منهما بواسطة الماء قادر على البعث للحساب للثواب أو العقاب." (٢) فكيف يكفر به من يكفر؟ أفلا يؤمنون بعد كل ما رأوا من الآيات الكونية؟ ألا يؤمنون بربهم الذي سخر لهم السماء والأرض لينتفعوا به. (٣)

ثم تفصل الآيات بعض آيات الله تعالى في الكون ونعمه على خلقه، فيقول سبحانه:

﴿ وَجَعَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣١]

خلق الله تعالى الجبال في الأرض فثبتها وأرساها بها، فلا تميد ولا تتحرك أو تضطرب بأهلها، ليتمكنوا من السكن فيها وعمارتها وحرثها والسعي فيها والاستقرار بها(٤)، "ولما كان المراد من الرواسي الشدة والحزونة لتقوى على الثبات والتثبيت، وكان ذلك مقتضياً لإبعادها وحفظها عن الذلة والليونة، بين أنه أخرق فيها العادة ليعلم أنه قادر" (٥) على كل شيء، فقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ فمن تمام نعمته عليهم أن جعل في هذه الجبال فجاجا،

(١) مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٦٤).

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٠)

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٦٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٢)، فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٦٠).

(٤) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣١٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٣)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٢)

(٥)نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٠)

وهي المسالك، جعلها سبلا ميسرة للسير فيها، لعلهم يهتدون إلى ما يقصدونه من البلاد، وهذه هداية حسية، ولعلهم يجعلون هذه الآيات سبيلا لهم إلى هداية قلوبهم إلى الإيمان بالله، وهذه هداية معنوية[1].

وبعد ذكر آية عظيمة من آياته عز وجل في الأرض، قابل ذلك ذكر آية عظيمة في السماء، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ جعل الله تعالى السماء سقفا للأرض، "ولما كان ما يعرفون من السقوف على صغرها لا تثبت إلا بالعمد، ويتمكن منه المفسدون، وتحتاج كل قليل إلى إصلاح وتعهد، بين أن هذا السقف على سعته وعلوه على غير ذلك" [2] فقال: محفوظاً، أي عن السقوط على الأرض، كما قال عز وجل: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [سورة الحج: ٦٥]. والسماء محفوظة أيضا من الشياطين، قال تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [سورة الحجر: ١٧]. ولكن الكفار معرضون عن آيات السماء، من ارتفاعها، وحفظها، وشمسها وقمرها ونجومها، معرضون عنها لا يتدبرونها، لذلك لا ينتفعون بها [3].

وبعد الاستدلال على وحدانية الله بذكر بعض آياته في السماء وبعض آياته في الأرض، ذكر آيتين من آياته جل وعلا، تكونان في السماء والأرض معا، فقال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يمتن الله تعالى على عباده بخلق الليل لهم، ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا في معايشهم، كما قال عز وجل: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٣]، وقال ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [سورة النبأ: ١٠ - ١١]. وخلق القمر في الليل، والشمس في النهار، كل منهما يدور في فلك ومسار يخصه، وله نور يخصه. [4]

" ولما ذكر الصارم البتار، للأعمار الطوال والقصار، من الليل والنهار، كان كأنه قيل: فينفيان كل شديد، ويبليان كل جديد، فعطف عليه قوله" [5]:﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣١٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٣)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٢).

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨١)

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢/ ١٦٥)،فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٦٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٢)

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٣)

(٥) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨١)

ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٤ – ٣٥]

أثبتت الآيات السابقة انفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية، ولما كان الإنسان لا يصير مؤمنا إلا إذا آمن بالله ربا وبمحمد ﷺنبيا، انتقلت إلى إثبات نبوة النبي ﷺ، والرد على شبهات المكذبين له. فبدأ بالرد على الذين كانوا ينتظرون موته ﷺ ليشمتوا به، ولتنتهي دعوته وينتهي دينه الذي جاء به كما كانوا يظنون[1]، كما أخبر عنهم عز وجل في سورة الطور أنهم ﴿ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [سورة الطور: ٣٠]، فرد عليهم هنا بأن الرسول ﷺ مثل من سبقه من الرسل، سيموت كما ماتوا، فإن الله لم يجعل أحدا من البشر مخلدا في الدنيا، فهل يظن هؤلاء الشامتون بك المنتظرون موتك أنهم يخلدون في الدنيا بعدك؟ لأنهم بانتظارهم موته كأنهم عالمون علم يقين أنهم باقون بعده فيشمتون به. لأن العاقل لا ينتظر الشماتة بعدوه في أمر إلا إن تحقق سلامته هو منه، وأما الموت فلا يسلم منه أحد، فكيف يرجون أن يشمتوا به؟ لذلك توجه الإنكار عليهم والتسلية له بمنع شماتتهم في قوله: ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾[2] كل نفس ستموت، وتجد مرارة الموت وكربه "كما يجد الذائق طعم المذوق"[3].

وبعد أن ذكر مصيبة الموت، بين الحكمة مما يصيب الإنسان من المصائب في الدنيا، وأنه لا يكاد يخلو إنسان من الابتلاء، إما بالخير أو بالشر، فمن صبر على الضراء وشكر في السراء، نجح في الابتلاء. وخير الناس وهم الأنبياء، ابتلاهم الله تعالى بالسراء وبالضراء، فشكروا على السراء وصبروا على الضراء، لذلك أثنى عليهم الله تعالى. قال عز وجل عن سليمان عليه السلام، الذي أنعم عليه بالملك والمال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص: ٣٠]، وقال عن أيوب عليه السلام، الذي ابتلي في ماله وولده وبدنه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص: ٤٤]

فالمؤمن عابد لله تعالى في كل أحواله كما قال ﷺ: ((**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**))[4]

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٢٣٥)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٢)

(٣) الكشاف للزمخشري (٣ / ٤٦١)

(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير ح (٢٩٩٩)، ص (١٢٠٠).

وذلك لأن المؤمن يعلم أنه ميت، وأنه مجازى على ما يفعل، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود والاستعداد لها[1].

ومن المصائب التي أصيب بها الرسل: استهزاء أممهم بهم، لذلك جاء ذكر استهزاء الكفار بالنبي ﷺ بعد ذكر الابتلاء، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة لأنبياء: ٣٦]

فهم يستهزؤون به وينتقصونه، ويحتقرونه أن يذكر آلهتهم. والمراد في الآية ذكرها بسوء، بدلالة الحال؛ لأن الذكر يكون بالخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، ولما كان السياق في الإنكار، دل على أن المقصود هو الذكر بالسوء، فلم يحتاجوا إلى بيان أن مرادهم هو ذكرها بما يسوء.

فأولئك الكفار عاكفون على مدح آلهتهم والثناء عليها، ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك. وأما ذكر اللّه وما يجب أن يذكر به من الوحدانية، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلا، فهم أحق بأن يتخذوا هزؤا منه ﷺ، فإنه محق وهم مبطلون، كفروا بربهم الرحمن، الذي يسدي لهم النعم ويدفع عنهم النقم[2].

ولما كان ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ يوقع في نفوس المسلمين استعجال الانتقام منهم، أُمروا أن لا يستعجلوا ربهم، لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت الوعيد، وما في تأخير نزوله من المصالح للدين. ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٧][3] "أي: خلق عجولا يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، جُعل لفرْطِ استعجالِه وقلة صبره كأنه مخلوقٌ منه، تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق منزلةَ ما طبع منه من الأركان، إيذاناً بغاية لزومِه له وعدم انفكاكه عنه" [4]

فالعجلة من طبع الإنسان مؤمنا كان أو كافرا، "فالمؤمنون، يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطئونها، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب، تكذيبا وعنادا، ويقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ " [5]

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣ / ٤٦١).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٣)

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ٦٧)

(٤) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٦٧)

(٥) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٣)

وأجابت خاتمة الآية على استعجال الفريقين، فقال عز وجل: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾: أيها المؤمنون، بل اعلموا أن الكفار مجازَون على كفرهم لا محالة، فلا تستعجلوا وقوع الجزاء بهم. ويصح أن يتوجه الخطاب للكفار، الذين يستعجلون العذاب[1]، فيقول لهم: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أيها المستعجلون ربهم بالآيات، سأريكم نقماتي في الآخرة كعذاب النار وغيره ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالإتيان بها، فإنها ستأتيكم وسترونها[2].

ولما ذم العجلة، ونهى عنها، قال دالاً عليها [3] مبينا قول الكفار المستعجلين بالعذاب: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يتساءلون عن وقت العذاب استبطاء له، وتكذيبا وجحودا[4]، فيأتهم الجواب: لا بمجرد إثبات وقوعه، بل بوصف أحداثه، مبالغة في تحققه، " للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به وإنما حقُّه الانتظامُ في سلك المسلّمات المفروغ عنها" [5] وفي هذا تخويف لهم لعلهم ينتهون. [6] فيقول عز وجل –مصورا لهم حالهم حين يأتيهم العذاب:﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٩ – ٤٠].

بدأت الآيات بنفي العلم عن المكذبين، لأنهم لما بالغوا في الاستهزاء كانوا أجهل الجهلة[7]. ووصفت لهؤلاء الذين يستعجلون بالعذاب حالهم حين يأتيهم ما استعجلوا به، حيث تحيط بهم النار من جميع جهاتهم [8]، "فلا يقدرون على دفعها" [9]، "ولا لهم ناصر ينصرهم فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله" [10].

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري(٢/ ٥٧٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٣)

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٧٥) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٤)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٦٧)

(٣) نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٨٤)

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٤)

(٥) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٦٨)

(٦) ينظر: فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٦٢)

(٧) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٤)

(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٤)

(٩) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٦٢)

(١٠) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٧٦)

وتخصيصُ الوجوه والظهور بالذكر لكونهما أشهرَ الجوانب، لاستلزامِ الإحاطة بهما الإحاطةَ بالكمال [1]، ولأن " الإنسان أحرص على الدفاع عن وجهه من غيره من أعضائه" [2]. بالإضافة إلى ما في تخصيصهما بالذكر من العذاب المعنوي؛ "لأن الوجوه أعز الأعضاء على الناس، ولأن الأدبار يأنف الناس من ضربها لأن ضربها إهانة وخزي" [3].

لو علم الكفار هذه الحالة التي يكونون عليها حق المعرفة، لكان لهم شأن غير شأنهم، لما أقاموا على ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بالله، ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء. [4] ولكنهم لا يعلمون ذلك إلا عند وقوعه حين قيام الساعة –التي التي لم يأتِ نص بتعيين وقتها– كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٣] وقال عز وجل﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٧]. فهي لا تأتي بالتدريج كغيرها، –وإن كان لها أمارات تدل على اقترابها لكن لا تحدد موعدها– بل هي تأتي بغتة[5]، كما جاء في آيات أخرى، منها قوله عز وجل: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٧]، وقال عز وجل: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ [سورة الحج: ٥٥]. وغيرها من الآيات. ولهذا قال عز وجل في هذه السورة: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٠].

بدأت الآية بـ (بل)"للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعد لهم، إلى التهديد بأن ذلك يحل بهم بغتة وفجأة، وهو أشد على النفوس لعدم التهيؤ له والتوطن عليه" [6] تأتيهم الساعة على حين غرة، فلا يتمكنون من الاستعداد لها، أو التوبة عما سلف منهم من التكذيب والاستهزاء، بل تفاجئهم وتجعلهم يقفون مستسلمين لها حائرين، ولذلك ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٨)

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦ / ٢٢٩)

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ٧١)

(٤) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٧٦)تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٤)، في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٧٣)

(٥) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٤)

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ٧١)

رَدَّهَا ﴾ ولا يدرون ما يصنعون [1] "وهذه المباغتة جزاء استعجالهم في قولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فكان الرد هو هذه البغتة التي تذهل العقول، وتشل الإرادة، وتعجزهم عن التفكير والعمل، وتحرمهم مهلة الإنظار والتأجيل". [2] فليس لهم حيلة في رد العذاب عن أنفسهم، ولا يؤخر عنهم ساعة واحدة[3]. "وفيه تنبيه لهم إلى أنهم أنظروا زمنا طويلا لعلهم يقلعون عن ضلالهم". [4]

ولما أخبرهم بما سيحل بهم في المستقبل من العذاب إن لم يؤمنوا، أخبرهم عن عقوبته الماضية للأمم المكذبة، مما يدل على أن الرسل في ذلك شرع واحد، تسلية له ﷺ، فقال عز وجل: [5]

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤١].

بينت الآيات السابقة العذاب الذي سيلقاه الكفار المستهزئون برسول الله ﷺ في الآخرة، وفي هذا تسلية له ﷺ عن الاستهزاء والأذى الذي آذاه به المكذبون، ثم سلاه عز وجل في هذه الآية من وجه آخر، وذلك بإخباره أن استقبال دعوة الرسول ﷺ بالاستهزاء هو ديدن الكافرين في كل عصر، ومع كل نبي. وأخبر جل وعلا أن سنته في هؤلاء المستهزئين ثابتة لا تتغير، وهي أنه يحيط بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به إذا خوفتهم منه رسلهم، وفي هذا تهديد ثانٍ للمستهزئين به ﷺ، وتخويف لهم من العقاب في الدنيا، بعد تخويفهم من عقاب الآخرة، فلن يعدو هؤلاء المستهزءون به ﷺ من هؤلاء الكفرة أن يكونوا كأسلافهم من الأمم المكذّبة رسلها، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم به نظير الذي نزل بهم[6].

ولما هددهم بما سيصيبهم من العذاب يوم القيامة إن استمروا على كفرهم، وخوفهم من العقاب في الدنيا كما وقع لمن قبلهم، كان على العاقل أن لا يأمن العقاب في الدنيا والآخرة إلا بشيء يوثق به، وهو الإيمان بالله عز وجل[7]، لكن هؤلاء الكفار لم يؤمنوا، فكيف يأمنون عقاب الله؟ ولذلك أمره أن يسألهم عن ذلك بقوله:

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٤)، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٤)

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٨٠)

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٤)

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ٧٢)

(٥) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٥)

(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٧٧)

(٧) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٥)

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٢]

من يحفظكم ويحرسكم بالليل وبالنهار من أمر الرحمن إن نزل بكم، ومن عذابه إن حلّ بكم[١] وهذا سؤال توبيخ، لينبههم أنه لا حافظ يحفظهم من نزول عذاب الله إلا هو سبحانه، وأنه عز وجل لا يزال يكلؤهم ويحفظهم ويسبغ عليهم النعم التي تستوجب الشكر. وفي هذا تذكير لهم بنعمة الله عليهم "في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام"[٢] وذكر الليل لأن غفلتهم وحذرهم سواء بالنسبة إلى قدرته، وذكر النهار لأن مدافعة العذاب غير ممكنة لنائم ولا يقظان، وقدم الليل لأن الأخطار فيه أكثر وأشد خفاء، فيصعب اتقاؤها. ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواه سبحانه، ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: (من الرحمن) الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه، فهل تأمنون مكره ولو بقطع إحسانه؟ فكيف إذا ضربتم بسوط جبروته وسطوة قهره وعظمته؟ ولما كان الجواب قطعا: ليس لهم من يكلؤهم منه، وهو معنى الاستفهام الإنكاري، قال مضرباً عنه: (بل هم) أي في أمنهم من سطواته (عن ذكر ربهم) الذي لا يحسن إليهم غيره (معرضون) فهم لا يذكرونه أصلاً فضلاً عن أن يخشوا بأسه وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان. لكن هؤلاء الكفار في حال عكس ما يجب أن يكونوا عليه، فهم لا يُخطِرون ذكرَه تعالى ببالهم أصلا، فضلاً أن يخافوا بأسَه، ويعدّوا ما كانوا عليه من الأمن والدعَةِ حفظاً وكَلاءة فيشكروه. [٣] لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ "وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى، وإيرادِ اسمِ الرب المضافِ إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوتِه وتدبيره وتربيتِه تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصيةِ من الضلالة والغيّ ما لا يخفى" [٤].

ولما بين أنه لا حافظ لهم من بأس الله سأل هؤلاء الكافرين المكذبين:

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٣]

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٧٨)

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٤)

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٩)، نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٨٥)

(٤) إرشاد العقل السليم (٦/ ٦٩)

هل لهم آلهة تمنعهم من بأس الله؟ والجواب: كلا، فالآلهة التي يدّعونها لا تستطيع نصر نفسها فضلا عن أن تنصر عابديها، فيبقى المشركون بلا ناصر ينصرهم، فلا آلهتهم تنفعهم، ولا يصحبهم الله عز وجل بنصره و لا يجيرهم[1].

وبعد أن نفت الآيات أن يكون للكفار حافظ غير الله يحفظهم من بأسه وعذابه، أخبرت عن سبب تماديهم في الكفر، وسبب غرورهم الذي جرأهم على الاستهزاء بالوعيد، فقال تعالى -إضرابا عن ما سبق، وإنكارا-: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٤]. متعهم الله بالنعم الدنيوية زمنا طويلا حتى ظنوا هذه النعم علامة على صلاح دينهم. ولما كان قد أقام الأدلة على أنه لا مانع لهم من الله، نتج عن ذلك الإنكار عليهم في عبادة غيره، وفي عدم اعتبارهم بنقصان أرض الشرك بظهور الإسلام فيها، ونصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، فقال تعالى: (أفلا يرون) أي يعلمون علماً هو في وضوحه مثل الرؤية بالبصر (أنّا) بما لنا من العظمة (نأتي الأرض) ثم بيّن الإتيان المقصود هنا بقوله عز وجل: (ننقصها من أطرافها) ولما كانت هذه سنة مطردة، أنكر عليهم ظنهم أنهم ينجون منها، فقال عز وجل: ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فهل سيكون هؤلاء هم الغالبون؟ بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون.[2] "واختيار الجملة الاسمية دون الفعلية لدلالتها بتعريف جزئيها على الحصر" [3]

وبعد أن أخبر الله تعالى في أول السورة عن طلب الكفار للآيات والمعجزات المادية بقولهم: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ ، وأخبر عن استعجالهم بالعذاب تكذيبا له واستهزاءا، ووبخهم على أمنهم من العذاب مع عدم من يحفظهم من عذابه عز وجل ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ ، وعلى عدم اعتبارهم بنقصان أرض الشرك بدخولها في دين الله، بعد كل ما سبق، أمر الله تعالى نبيه ﷺ

أن يقول للمشركين: ﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ ، فلا تطلبوا غيره من الآيات إذ فيه الكفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولكن الكفار يسمعون القرآن ولا ينتفعون به، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ فهم في صمم عن سماع

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٨٠) ، مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٧٤)

(٢)ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٥) ، نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٨٦)

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ٧٥)

الحق والهدى، معرضون عن الاعتبار به والتفكر فيه، كالأصمّ الذي لا يسمع ما يقال له، فلا يعمل به[1].

ثم قال الله عز وجل: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٦]

فهم مستمرون على تلك الصفة من الاستكبار، والجرأة على التصامّ عن آيات الإنذار، حتى إذا مسهم مما ينذرون به أدنى شيء أذعنوا وذلوا، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا[2].

"ولما بيّن ما افتتحت السورة من اقتراب الساعة ببيان القدرة عليه واقتضاء الحكمة له، وأن كل أحد ميت لا يستطيع شيئاً من الدفع عن نفسه فضلاً عن غيره، وختمت الآيات بإقرار الظالم بظلمه، وكانت عادة كثير من الناس الجور عند القدرة، بين أنه سبحانه بخلاف ذلك فذكر بعض ما يفعل في حساب الساعة من العدل فقال عاطفاً على قوله (بل تأتيهم بغتة):﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]" [3].

تنصب موازين العدل التي توزن بها أعمال العباد، وصفها الله تعالى بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد هذا العدل بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ ﴾ ، وبني الفعل للمجهول لأن الملك من ملوك الدنيا قد يكون عادلا ولكن له أتباع ظلمة، فلا يسلم الناس من الظلم ولو كانوا تحت ولاية ملك عادل، لكن عظمة الله تعالى وإحاطة علمه تمنع وقوع الظلم في يوم القيامة على أي نفس ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ فلا يُظلم أحد أبدا في ذلك اليوم، لا يعاقب على ذنب لم يفعله، ولا يبخس من ثواب طاعة فعلها، ولو كانت بمقدار حبة الخردل، فإن الله يحصيها. ولما كان هذا أمراً باهراً للعقل، حقره عند عظمته فقال: (وكفى بنا) أي بما لنا من العظمة (حاسبين) أي لا يكون في الحساب أحد مثلنا، ففيه وعيد بأنه تعالى لا تخفى عليه

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٨٢)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧- ٧٨)

(٢) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٧٤)

(٣) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٧)

خافية، وأنه يحاسب الناس على الدقيق والجليل، وفيه وعد بأنه سبحانه يثيب على الحسنة ولو قلّت، ولو كانت مثل حبة الخردل[1].

ولما قدم في بداية السورة في قوله عز وجل: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ أنهم أعرضوا عن هذا الذكر تعللاً بأشياء منها طلب آيات الأولين، ونبه على إفراطهم في الجهل بما ردوا من الشرف بقوله ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ومر إلى أن ختم بجزاء الناس يوم القيامة، وأنه يحكم فيهم بالعدل سبحانه وتعالى، بين أنه –لعدله عز وجل– لم يتركهم هملا، بل أقام عليهم الحجة، بأن أرسل أليهم الرسل الذين أنذروهم بالوحي، كما أنذر الرسول ﷺ قومه بالوحي، وأتبعه بأن هذه عادة الله تعالى في الأنبياء قبله، مفصلا ما أجمل في قوله تعالى أول السورة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧] فقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨][2]

ولما كان كتاب موسى عليه السلام أعظم الكتب السماوية بعد القرآن ، وكان هو ميزان العدل، لما فيه من الضياء، فلا يقع متبعه في الظلم، بدأ الله تعالى بعد آية الحساب بذكر موسى عليه السلام[3]، الذي يكثر في القرآن الربط بينه وبين محمد ﷺ. فأخبر عز وجل أنه أرسله وأخاه هارون عليهما السلام، وأنزل عليهما التوراة التي جاءت بالتفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، وهي ضياء، فبينت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم[4]، وكانت التوراة ذكرا للمتقين الذين ينتفعون بها، ولذلك خصهم بالذكر. وذكر بعد ذلك أوصافهم فقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٩][5].

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٨٥)، مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٧٤)، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٨)

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٢ / ١٧٤)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٧١)، فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٦٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ /٨٨)

(٣) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٨)

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٨٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٦)

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٢٢٦)، نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٨٨)

وبعد أن ذكر موسى وهارون عليهما السلام، الكتاب الذي أنزله عليهما، وكان العرب يشاهدون إظهار اليهود للتمسك به، حثهم على كتابهم الذي هو أشرف منه، فقال عز وجل: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٠]

(وهذا) أي القرآن، أشار إليه بأداة القرب إيماء إلى سهولة تناوله عليهم، (ذكر) أي عظيم. وصفه بأنه ذكر ليناسب السياق؛ لأن هذا الوصف هو آخر أوصاف التوراة في الآية السابقة، ولأن هذا الوصف يناسب ما مر في صدر السورة الكريمة في قوله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢].

ودلهم على أنه أثبت الكتب وأكثرها فوائد بقوله: (مبارك)[١] "فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها، وسرعة حفظه، وسهولة تلاوته. وهو أيضا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام، والحكمة، والشريعة، واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به لأن البشر عجزوا عن الإتيان بمثله... فكان وصفه بأنه مبارك وافيا على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنه فرقان وضياء. وزاده تشريفا بإسناد إنزاله إلى ضمير الجلالة." [٢]

ولما كان ذكر تلك الأوصاف العظيمة للقرآن يوجب "تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة"[٣] بالإيمان به والعمل بما فيه، أنكر الله عز وجل على من كفر به، فقال: ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ إذ كيف ينكرونه وقد علموا أنه مثل التوراة: أنزله الله على رسول من البشر. فكيف يقرون لليهود أن التوراة كتاب الله أنزله إلى موسى عليه الصلاة والسلام ثم يكفرون بالقرآن المنزل إلى محمد ﷺ؟![٤] وقد كان الأولى بهم أن يفرحوا بهذا الكتاب ويتمسكوا به، ولو أنكره غيرهم لكان ينبغي لهم أن يعادوه، فكيف يكون الإنكار منهم مع أن فيه رفعتهم في الدنيا والآخرة؟ لكنهم لا يعقلون، كما قال عنهم عز وجل في بداية السورة ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠][٥].

ولما أخبر الله تعالى في الآيات السابقة عن "دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام؛ تسلية للرسول ﷺ فيما يناله من قومه، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة،

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٩)

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٩١)

(٣) تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٥)

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٦٤)

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٨٩)

والصبر على كل عارض دونها" [1] وبدأ بقصة إبراهيم عليه السلام بعد أن ذكر كتاب موسى عليه السلام، وكتاب محمد ﷺ، حيث أنزل إليه ذكر كما أنزل إلى موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهاجر من بلده كما هاجرا عليهما الصلاة والسلام.[2]

قال عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٥١ - ٧٣]

لما أنكر على المشركين كفرهم بالذكر الذي جاءهم به رسول الله ﷺ، ذكر بعد ذلك قصة جدهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإنكاره على قومه عبادتهم للأصنام، وهي الحالة نفسها التي كان عليها مشركو مكة[3]. فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ .

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٧٨)

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٠)

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ٩٢)

فأخبر جل وعلا أنه قد هدى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ووفقه للحق، وبعثه إلى قومه قبل بعثة هارون وموسى، وكان عز وجل عالما بكونه أهلا لتلك المهمة، لما له من الرشد الذي آتاه الله إياه[1]. وهذا الرشد هو إنكاره على قومه عبادتهم الأوثان من دون الله[2]، حيث قال لهم: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ سألهم عن تلك التماثيل سؤال المتجاهل لحقيقتها، تحقيرا لشأنها، وتوبيخا لهم في عكوفهم على تماثيل لا تنفع ولا تضر[3]. فأجابوا جواب من لا حجة له، ولا دليل عنده على باطله، ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ هذه هي حجتهم، وليست حجة، لذلك ردها عليهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبين أنهم هم وآباءهم –الذين احتجوا بفعلهم– في غاية الضلال والبعد عن الحق، فقال: ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ولما أخبرهم أنهم هم وآباءهم على غير الحق، استعظموا قوله، واستنكروه، وأرادوا أن يجعلوا قوله في إنكار آلهتهم مجرد لعب وهزل، فـ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ ،[4] "وهو سؤال المزعزع العقيدة، الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه. ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد. فهو لا يدري أي الأقوال حق. والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل! وهذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير. فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه، متمثل له في خاطره وفكره، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ "[5]

فأجابهم عليه الصلاة والسلام بما يؤكد أن أمر العقيدة ليس فيه لعب ولا هزل، بل الحق والجد، وهو أن ربهم الذي ينبغي أن لا تصرف العبادة إلا له، هو خالق السماوات والأرض، وأكد ذلك الجواب بقوله: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ "فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي. أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات،

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٩٠)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٥)

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٦)

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري(٢/ ٥٧٥).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٦)

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٨٥)

والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله.

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا، ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

أما الدليل السمعي: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم خصوصا خليل الرحمن"[1].

وبعد أن بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، عزم على تكسيرها؛ ليجمع بين إنكار المنكر بالقول، وبالفعل[2]. وأكد عزمه بالقسم فقال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ ، وكان قوله هذا بعد أن خرج قومه إلى عيد لهم، وعرضوا عليه أن يرافقهم فقال: إني سقيم، ولما خرج عامتهم وبقي صغارهم قال: لأكيدن أصنامكم، فسمعه الذين بقوا.[3]

ونفذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما عزم عليه، قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ كسر الأصنام كلها، حتى صارت مجرد قطع محطمة متناثرة، وأبقى كبير الأصنام، لم يحطمه، لعل عابديه يرجعون إليه فيسألونه عن من حطم أصنامهم، ويكون ذلك سببا في رجوعهم إلى الحق الذي جاءهم به إبراهيم عليه الصلاة والسلام[4].

فلما رجعوا من عيدهم، ودخلوا بيت الآلهة، ورأوا ما حدث لآلهتهم من التكسير الدال على الإهانة والإذلال، وعدم استحقاقها للعبادة، تساءلوا جزعين: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. فقال الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام يتوعد بكيد آلهتهم، ﴿ سَمِعْنَا فَتًى

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٦)

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٨١)

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٧)

(٤) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٢٩٤)، الكشاف للزمخشري (٥٧٥)

﴿ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ومرادهم أنه يذكر آلهتهم بسوء، وينتقصها، فلعله هو الذي حطمها. ولم يريدوا تعظيمه مع شهرته فيهم فنكروه بقولهم ﴿ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [1].

فلما علموا أنه هو من كسر الأصنام ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ قال بعضهم لبعض: ائتوا بإبراهيم على مرأى ومسمع من الناس، ليشهدوا أنه هو من كسر الأصنام، ويشهدوا العقوبة التي سنعاقبه بها فلا يفعلوا كما فعل[2]. وكان اجتماع الناس هو ما يريده إبراهيم عليه السلام، ليتبين في ذلك الجمع الكبير أن أصنامهم التي يعظمونها لا تنفع نفسها فكيف يطلب منها النفع ودفع الضر؟[3]

فلما أتوا به ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ سألوه: هل أنت من كسر الآلهة؟ ليقيموا الحجة عليه بزعمهم. قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ مشيراً إلى الصنم الذي لم يكسره ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ أي إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له. أراد بذلك أن يفحمهم، ويبين ضلالهم في عبادتهم الأصنام التي هذه صفتها[4].

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقوله قبل ذلك: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((**لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله: قوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [سورة الصافات: ٨٩]، وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وواحدة في شأن سارة...**)) الحديث[5]. "ومعنى كونها كذبات: هو أنها تظهر كالكذبة للسامع لأنها خلاف الواقع، لكنها ليست كذبا في الحقيقة، بل من باب المعاريض التي تحتمل أمرين. قال العلماء في توجيه قوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾: إنه يحتمل أن يكون أراد ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيرا. ويحتمل أنه أراد ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ بما قدر علي من الموت... أما قوله: ﴿ بَلْ

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٩٨)، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٢) ، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٧٤).

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٢٩٨)، مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٨٤)

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٢٧)

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٦٦)

(٥) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم عليه السلام، ح (٢٣٧١) ص (٩٦٤) .

﴿ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ فكان تمهيدا للاستدلال على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة لأنها لا تقدر على الضر ولا النفع".[1]

ولما أفحمهم وأقام عليهم الحجة، رجع بعضهم إلى بعض[2] ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ اعترفوا أنهم هم الظالمون؛ لعبادتهم الأصنام التي لا تنطق، ولا تملك ضرا ولا نفعا[3]. ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ بعد أن عرفوا الحق انتكسوا، ورجعوا عنه إلى الباطل، وقالوا لإبراهيم عليه السلام ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فكيف تطلب منا أن نسألهم؟ عندها ظهر ضلالهم وسفههم بعبادتهم الأصنام الجامدة مع علمهم بحالها، وظهرت الحجة لإبراهيم عليهم، لذلك استأنف الإخبار عنها بقوله: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.[4]

ولما كان قد سبق لهم منه الإنكار ولم يردعهم ذلك عن الضلال والشرك الذي كانوا فيه، وثبت لهم أن معبوداتهم في حيز العدم، فكانوا لعبادتها دونها، استأنف تبكيتهم لذلك بأعلى كلمات التحقير التي لا تقال إلا لما هو غاية في القذارة فقال متضجرا منهم: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فلو كان لهم عقل لانتفعوا به[5]

ولما عجزوا عن الرد عليه بالحجة، فعلوا ما يفعله الطغاة إذا هزموا في المناظرة كما قال فرعون لموسى – لما انقطعت حجته –: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩]، [6] وكذلك قوم إبراهيم عليه السلام، انتقلوا إلى التهديد والوعيد، فقالوا: فقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾. "لكن كلمة أخرى قد قيلت، فأبطلت كل قول، وأحبطت كل كيد؛ ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد"[7]، كلمة الله جل جلاله: ﴿

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦ / ٣٩١-٣٩٢)

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٣٠١)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٠٢)، مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٨٦)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٤)

(٥) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٤)

(٦) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٠)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ٣٠٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٢٨)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٧)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ١٠٥)

(٧) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧ / ٢٣٨٧)

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، ولما كان البرد قد يكون ضاراً قال: (وسلاماً) فكانت كذلك، فلم تحرق منه إلا وثاقه، عندها رجع كيدهم إليهم، فقد أرادوا بما صنعوا له من العذاب أن يكون أسفل من أهل ذلك الجمع، فصاروا هم أهل الخسار التام، في الدنيا والآخرة، بسبب كفرهم. وصارت عاقبة السوء والخسارة التامة عليهم في الدنيا والآخرة، ولإبراهيم عليه الصلاة والسلام عاقبة الخير. حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل، وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقِهم لأشد العذاب [1]. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ .

ثم أتم الله عز وجل لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام النجاة، فأخرجه وابن أخيه لوط عليه السلام إلى الأرض المباركة، أرض الشام. قال عز وجل: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ وفي الآية فضيلة وشرف للشام، حيث وصفت في القرآن الكريم بالبركة التي تعم العالمين.

ثم ذُكر في الآيات نعم أخرى أنعم بها الله تعالى على إبراهيم، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾.

رزقه الله ولدا مع شيخوخته وعقم زوجه. وفي ذلك دليل على قدرته سبحانه على البعث الذي افتتحت به السورة وجاءت على سياقه أغلب آياتها.[2]

ولما كان قد يظن أن إسحاق عليه السلام – لتولده بين شيخ فانٍ وعجوز مع يأسها عقيم – كان على حالة من الضعف، لا يولد لمثله معها، نفى ذلك بقوله: (ويعقوب نافلة) أي ولد إسحاقُ يعقوبَ زيادةً على ما دعا به إبراهيم عليهما السلام؛ ثم نمى سبحانه أولاد يعقوب – وهو إسرائيل – وذرياتهم إلى أن ساموا النجوم عدة، وباروا الجبال شدة ، ولما ذكر أنه أعطاهم رتبة الصلاح في أنفسهم، ذكر أنه أعطاهم رتبة الإصلاح لغيرهم، فقال معظماً لإمامتهم: (وجعلناهم أئمة) أي أعلاماً ومقاصد يقتدى بهم في الدين بما أعطاهم من النبوة. ولما كان الإمام قد يدعو إلى الردى، ويصد عن الهدى، إذا كانت إمامته ظاهرة لا يصحبها صلاح

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٥- ٩٦)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٧٧)، فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٦٦)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٧).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٧)

باطن، تحرز عن ذلك بقوله: (يهدون)[1]. فمن إمامتهم أنهم يهدون الناس ويدعونهم إلى دين الله، ومن إمامتهم فعلهم للخيرات ، ودعوتهم إليها، ثم عطف الخاص على العام تنبيها على أهميته فأخبر عن إقامتهم الصلاة بأركانها وواجباتها وسننها ، وإيتائهم الزكاة ، فذكر أعظم العبادات التي بين العبد وربه، وأفضل العبادات التي فيها الإحسان إلى الخلق [2].

ولما ختمت قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذكر نجاته مع لوط، وهو ابن أخيه تلاه به ، فقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٤ - ٧٥]

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يخبر الله عز وجل أنه رزق لوطا عليه السلام النبوة، والعلم بأمر دينه، وحسن الفصل والقضاء بين الناس[3]. وأنه بعثه إلى قومه يدعوهم إلى الله وينهاهم عن ما كانوا عليه من الأفعال الخبيثة، لكنهم عصوه وردوا دعوته، ولما كانوا قد قلبوا فطرهم بأفعالهم الخبيثة عاقبهم الله تعالى بأن قلب عليهم قراهم، وأمطر عليهم الحجارة، وهذا العذاب استحقوه لأنهم ﴿كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [4]، ونجى الله تعالى نبيه لوطا عليه السلام وجعله من أهل الجنة بما من عليه من الإسلام، والنبوة، وطاعة الله عز وجل، وذلك من رحمة الله تعالى به، لأنه ﴿ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [5]

ذكر الله تعالى قصة لوط عليه السلام بعد قصة إبراهيم عليه السلام لمناسبتها لها من جهة الحجارة الحامية التي ألقيت على قومه، مع النار التي أوقدها قوم إبراهيم عيه ليحرقوه بها، وأما من جهة الماء الذي أمطره الله على قرى قوم لوط عليه السلام، فقصته مناسبة لقصة نوح عليه السلام الذي سخر الله له من الماء ما لم يسخر لغيره، حيث غمر جميع الأرض، وأهلك الله تعالى به كل المكذبين [6].

فناسب أن تعقب قصة لوط بقصة نوح، فقال عز وجل: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يخبر الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٨)

(٢) ينظر: المصدر السابق (٥ / ٩٨)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢٨)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣١٨)

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٦٧)

(٥) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣١٩)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٦٧)

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥/ ٩٩)

بعثه إلى قومه قبل إبراهيم ولوط عليهما السلام، وأن قومه كذبوه ولم يؤمن معه إلا قليل منهم، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [سورة القمر: ١٠]، ودعا على قومه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [سورة نوح: ٢٦] فاستجاب الله تعالى دعاءه، ونجاه ومن آمن معه من الغرق الذي عم الكفار جميعا؛ لأنهم كانوا قوم سوء.

وبعد قصة إبراهيم عليه السلام، وابن أخيه لوط عليه السلام، وقصة أبيهم نوح عليه السلام؛ تأتي قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام. لأنه "ربما قيل: لم قدم إبراهيم ومن معه على نوح وهو أبوهم ومن أولي العزم، وموسى وهارون على إبراهيم وهو كذلك، أشار بقصة داود وسليمان – على جميعهم الصلاة والسلام – إلى أنه ربما يفضل الابن الأب في أمر، فربما قدم لأجله وإن كان لا يلزم منه تقديمه مطلقاً، مع ما فيها من أمر الحرث الذي هو أنسب شيء لما بعد غيض الماء في قصة نوح عليه السلام". (١)

قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٨ – ٨٢]

يثني الله عز وجل على داود وابنه سليمان عليهما السلام في حكمهما بين المتخاصمين، ويبين أنه تعالى عالم بالقضية والحكم فقال: "(وكنا لحكمهم شاهدين) لم يغب عنا ذلك ولا شيء من أمرهم هذا ولا غيره... وهذا دليل على قوله تعالى: (قل ربي يعلم القول)، و قوله (و كنا به عالمين إذ قال لأبيه)" (٢). وذكر هنا قصة أصحاب الزرع الذين شكوا إلى داود عليه السلام أن غنما دخلت زرعهم فرعت فيه ليلا، فأتلفته، وكان الحكم الذي رآه داود عليه السلام أن يدفع أصحاب الغنم غنمهم إلى أصحاب الزرع، لأن قيمة الغنم مثل قيمة الزرع الذي تلف. ولما علم سليمان عليه السلام بالقضية قال: لو حكمت فيهم لحكمت بغير ذلك. فسأله داود عليه السلام: كيف كنت تحكم؟ قال: تدفع الغنم لأصحاب الزرع ينتفعون بلبنها وصوفها وأولادها، ويقوم أهل الغنم على إصلاح الزرع، حتى إذا عاد الزرع كما كان، أعاد

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ٩٩- ١٠٠)

(٢) المصدر السابق (٥ / ١٠٠)

أصحاب الأرض الغنم لأصحابها، وأخذوا أرضهم. فكان هذا الحكم أوفق وأصوب، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، ولكن هذا لا يقدح في علم داود عليه السلام ولا في حسن قضائه، لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾. فكل من الأب والابن آتاه الله العلم والنبوة وحسن الحكم بين الناس[1].

"وفي هذا رد على المشركين في غيظهم من النبي ﷺ في تسفيه الآباء المخطئين والرد عليهم، كما في قصة إبراهيم عليه السلام، لأنه ليس بمستنكر أن يفضل الابن أباه ولو في شيء...ولما كان ذلك ربما أوهم شيئاً في أمر داود عليه السلام، نفاه بقوله ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ، وأتبعه من الخوارق ما يشهد له بالتقدم والفضل"[2] فقال ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ بعد أن بين عز وجل النعمة المشتركة بينهما، ذكر النعم التي اختص بها كل منهما،[3] وبدأ بداود عليه السلام، فأخبر أنه سخر له الجبال والطير تسبح معه، وقد كان صوته حسنا في تلاوة الزبور.[4] وقدم ذكر الجبال على الطير لأنها جماد فالتسبيح منها أعجب، والمعجزة فيها أظهر[5]. "ولما ذكر تسخير الجبال بالتسبيح، أشار إلى تسخير الحديد الذي هو أقوى تراب الجبال وأصلبه وأصفاه فقال: "[6]﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ ألان الله له الحديد، فكان يصنع منه الدروع التي يتحصن الناس بها في الحروب، وهذه نعمة كبيرة تستوجب الشكر، لذلك ختمت الآية بالحث عليه[7].

ولما بين سبحانه وتعالى أنه سخر لداود عليه السلام أكثف الأجسام، فأنطق معه الحجر وألان له الحديد، بين أنه سخر لسليمان عليه السلام ألطف الأجسام، وهي الريح[8]، فقال عز وجل: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ سخر الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، فكانت تنقله وأصحابه إلى حيث شاء، ثم

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٢٢)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ٣٠٨)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٦/ ٧٩)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٠٠- ١٠١)

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ١٩٩)

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٣١)

(٥) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٠)

(٦) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٠١)

(٧) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٢٩)

(٨) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢٠٣)

تعود به إلى مقره في أرض الشام، الأرض التي باركها الله[1]. ومن تسخير الريح له أن جعلها الله تعالى "تحت أمره، إن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت"[2]، ولذلك وصفت في هذه السورة بأنها عاصفة، وفي سورة ص وصفت بأنها رخاء، قال الله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ص: ٣٦ [3]. فهي عاصفة باعتبار عملها، ورخاء باعتبار لطفها لطفها بهم فلا يجدون لها مشقة[4].

وبعد ذكر النعمة بالريح التي توصله إلى ارتفاع لم يكن البشر يصلون إليه، ذكر النعمة بالجن الذين يستخرجون له اللآلئ من عمق لم يكن البشر يصلون إليه، وذلك "مقابلة لارتفاع الحمل في الهواء باستفال الغوص في الماء"[5] فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ فكانت الشياطين مسخرة له بالغوص " في الماء يستخرجون اللآلئ "[6]. ويخدمونه بأعمال أخرى غير الغوص، منها ما ذكره الله تعالى في سورة سبأ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سورة سبأ: ١٣]. ومن تمام إنعام الله على سليمان بتسخير الجن لخدمته أن حفظهم ومنعهم عن إيذائه أو إيذاء أحد من الناس في وقته، وعن الهرب منه، وعن إفساد أعمالهم[7].

وجاء التركيب هنا حين ذكر تسخير الريح لسليمان باللام، وحين ذكر تسخير الجبال جاء بلفظ (مع) فقال ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ وذلك أنه لما اشتركت الجبال في التسبيح حصل لها نوع شرف فناسب ذكر (مع) الدالة على المصاحبة، وأما الريح فكانت مستخدمة لسليمان عليه السلام فأضيفت إليه بلام التمليك في قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾ لأنها في طاعته وتحت أمره[8].

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٣٣١)

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣٣٥)

(٣) ينظر: المصدر السابق (٥/ ٣٣٥)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٠٢)

(٥) المصدر السابق (٥/ ١٠٣)

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٣١)

(٧) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣٣٧)، مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢٠٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٣١).

(٨) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢٠٣)، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٦/ ٢٤٢)

وبعد قصة داود وسليمان عليهما السلام، وبيان النعم التي أنعم الله بها عليهما ابتلاء لهما، فقابلاها بالشكر، تأتي قصة أيوب عليه السلام الذي ابتلاه الله تعالى بالضراء فصبر. قال تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

ابتلي أيوب عليه السلام في بدنه بالمرض، وفي ولده بموتهم، وفي ماله بفقده[١] فصبر، ولم يجزع، بل: ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وليس في قوله هذا شيء من الجزع المنافي للصبر، لأن الجزع هو الشكوى إلى الخلق لا إلى الخالق، أما الشكوى إلى الله تعالى فليست من الجزع، ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام:﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة يوسف: ٨٦]. [٢]. ومقالة أيوب عليه السلام هي من الدعاء، بدلالة قول الله تعالى بعدها: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ [٣]. وكان دعاؤه كله تأدب مع الله، فتوسل إليه عز وجل بأن "ذكر "ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب"[٤]. فجاءت الاستجابة مباشرة:﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾استجاب الله دعاءه، فكشف الضر عن بدنه، ورد إليه أهله وولده وماله، ورزقه مثلهم، رحمة منه سبحانه وتعالى بعبده أيوب عليه السلام الذي قال: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾. وجعل قصته عليه السلام ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ ؛ حيث إنهم هم الذين ينتفعون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، وعلموا أن سبب ذلك الثواب الصبر، جعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر[٥].

ثم ذكر نماذج أخرى للصابرين مثنيا عليهم، فقال عز وجل: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٥ - ٨].

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦ ٣٣٥- ٣٣٩)

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢٠٩)

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن لقرطبي (١١/ ٣٢٥- ٣٢٦)

(٤) الكشاف للزمخشري(٢/ ٥٨١)

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨١)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٩).

هؤلاء الثلاثة كلهم كانوا من الصابرين، ومن الصالحين، لذلك أدخلهم الله الجنة برحمته. وتلك سنة الله مع جميع الصالحين[1].

وبعد الثناء على الصابرين، يذكر الله قصة نبي نسي الصبر في بعض الأوقات، ويبين ما ناله بسبب ذلك، ثم يذكر توبته وإخراجه من الكرب الذي كان فيه، فيقول عز وجل عن يونس عليه السلام: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]

يخبر جل وعلا أن يونس عليه السلام خرج من بين قومه غاضبا منهم لما لم يؤمنوا، وكان خروجه قبل إذن الله تعالى له، وظن أن لن يعاقبه الله على ذلك بأن يضيق عليه، ولكن الحوت –وهو النون– ابتلعه، ولما صار في بطن الحوت، في ظلمة البحر، وظلمة الليل، تاب واستغفر، ودعا ربه مقرا له بكمال ألوهيته، منزها له عن الشريك، ثم عمَّ فنزهه عن كل نقص، ثم اعترف بخطئه وظلمه لنفسه،[2] فقال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، يقول الله تعالى بعدها: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ جاءت الاستجابة بعد الدعاء مباشرة، بدلالة العطف بالفاء، وفي هذا حث للمؤمنين على الدعاء والرجوع إلى الله في الكربات، لينجيهم كما نجى يونس عليه السلام، وقد وعد الله المؤمنين بذلك في خاتمة الآية، فقال عز وجل:﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، ولا سيما إذا دعوا بدعاء يونس عليه السلام[3].

وعطف على قصة يونس عليه السلام الذي خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله، قصة زكريا عليه السلام الذي وهبه الله ولدا من بطن لم يعهد الحمل من مثله، حيث كانت زوجه عاقرا[4]. قال عز وجل: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٩ - ٩٠]. سأل زكريا عليه السلام ربه أن لا يتركه فردا وحيدا بلا ولد ولا وارث يقوم على الناس بعده،

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٧٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١٣٠)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٠٥)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٧٨، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٣٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٢٩)

(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥/ ١٠٧)

وأن يهبه ولدا يرثه في نبوته، وختم دعاءه بأن رد أمره إلى الله فقال مثنيا عليه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [1] "أي خير من يبقى بعد كل من يموت، فأنت حسبي إن لم ترزقني ولداً فإني أعلم أنك لا تضيع دينك، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ"[2].

فاستجاب الله له ورزقه يحيى، وأصلح زوجته فحملت بعد أن كانت لا تحمل. [3]

ولما أخبر عن هؤلاء الأنبياء كل على انفراده، أخبر عنهم عموما بقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠] فاستجابة الله للأنبياء لما سألوه، وإنعامه عليهم، وإنجاؤه لهم من أعدائهم ومن ما مسهم من الكرب؛ إنما كان لأنهم يسارعون إلى فعل الطاعات، ويجتهدون في إتمامها، وكانوا يدعون ربهم في حال الرخاء وحال الشدة، يدعونه رغبة في ثوابه وخوفا من عقابه، وكانوا خاشعين لله، خاضعين متذللين له سبحانه.[4]

وبعد قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، تبعتها قصة مريم؛ لأن تلك موطئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها... وأما هذه فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] وهي مريم، حفظت نفسها من الحرام، فأرسل الله تعالى جبريل عليه السلام إليها، فنفخ في جيب ثوبها فحملت بعيسى بإذن الله. وكانت هذه آية للناس في كل زمان على قدرة الله تعالى.[5] وعلى البعث بعد الموت، فإن الذي أوجد عيسى عليه السلام بدون أب قادر على أن يبعث الناس بعد موتهم. وختم به الأنبياء المذكورين هنا لأنه خاتم المجددين لهذا الدين، وهو دليل الساعة، وكتابة أعظم كتاب بعد التوراة التي ابتدأ بصاحبها ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما عدا القرآن الكريم. [6]

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣٥٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٣٦)

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٧٢)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٣٨٨)

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري(٢/ ٥٨٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٣٧)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود(٦/ ٨٣)، فتح القدير للشوكاني(٢/ ٩٧٣)، تيسير الكريم الرحمن(٥٣٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٣٧)

(٦) نظم الدرر للبقاعي(٥/ ١٠٨)

وجاء ذكر مريم بعد الأنبياء مع أنها ليست نبية لأنها أم عيسى عليه السلام، وكان حملها به آية. وقال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين؛ لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير أب.[١]

ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الأنبياء وغيرهم على أن لله القدرة الباهرة والقوة البالغة الشاملة للبعث وغيره، وكان ذلك دالاً على التوحيد الذي هو أصل الدين، وكان الأنبياء كلهم متفقون عليه قال الله تعالى بعد قصصهم:[٢] ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٢ – ٩٣].

بين أنهم جميعا مجتمعون على دين واحد، وهو عبادة الله وحده ، ولذلك عقب هذا الخبر بالأمر بتوحيده عز وجل[٣] فقال: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ أي (وأنا ربكم) "لا غيري، في كل زمان وكل مكان، لكل أمة، لأني لا أتغير على طول الدهر، ولا يشغلني شأن عن شأن (فاعبدون) دون غيري فإنه لا كفء لي"[٤]. ولا تشركوا كما فعل الكفار الذين تفرقوا تفرقوا في دينهم، وصاروا فرقا وأحزابا، كل يدعي أن الحق معه، فمنهم اليهود، ومنهم النصارى، ومنهم المجوس، ومنهم غير ذلك[٥]. ولما أخبر عن تفرقهم، أخبر بما يفعل بهم، فقال متوعدا: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ فنحكم بينهم، ثم نجازيهم إقامة للعدل. ثم فصل جزاءه فيهم منطوقا ومفهوما، تحقيقاً للعدل وتشويقاً بالفضل، فقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٤][٦]

ذكر جزاء من يعمل الصالحات بعد الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ تعجيلا لمسرة المؤمنين، فأخبر أنه عز وجل يشكر سعيهم، وأنه يكتب أعمالهم ليثيبهم عليها.[٧] ويقابل جزاء المؤمنين جزاء الكفار، فمن لم يعمل من الصالحات، أو عملها

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٩٢)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/ ٣٣٨)، مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢١٩)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٠)

(٣) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٣٩٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١٤١)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١١)

(٥) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٩٣)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣٠)

(٦) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٢)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣٠)

(٧) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري(١٦/ ٣٩٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١٤٣)

وهو غير مؤمن، فإنه يعاقب على قدر ذنبه.[1] و"قدم وعد المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة اهتماما به، ولوقوعه عقب الوعيد تعجيلا لمسرة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارع تفصيل الوعيد"[2].

ولما ذكر جزاء المؤمنين، وأنه يتقبل أعمالهم، بين حال الكافرين فقال عز وجل: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٥]

أي يمتنع على الأمم المكذبة التي حق عليها العذاب والإهلاك لكفرها بآيات الله وصدها عن سبيله، أن ترجع إلى الدنيا بعد هلاكها، وأن تتوب وتقلع عن ما كانت عليه من الكفر والتكذيب[3]. و"ممنوع عدم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه، أي دعواهم باطلة، أي فهم راجعون إلينا فمجازون على كفرهم، فيكون إثباتا للبعث بنفي ضده، وهو أبلغ من صريح الإثبات"[4]، والقرى التي أهلكها هي القرى المكذبة، تخصيصها بذكر عدم رجوعها لأنها هي التي تنكر البعث، ولئلا يظن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها[5].

ولما ذكر البعث، عطف بذكر بعض مقدماته، فبدأ بيأجوج ومأجوج فقال: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦]

إذا فتح سد يأجوج ومأجوج – وهما قبيلتان من نسل نوح عليه السلام، تُركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وحبسهم فيه عن الإفساد في الأرض، و﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [سورة الكهف: ٩٨ – ٩٩] إذا فتح السد عنهم خرجوا مسرعين منتشرين في كل مكان، لا تمنعهم المرتفعات عن الإسراع إلى ما يسعون إليه من الإفساد في الأرض، بل يسرعون النزول عنها[6].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣٠)

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧/ ١٤٣)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٣٩٦)

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ١٤٥)

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود(٦/ ٨٥)، في ظلال القرآن لسيد قطب (١٧/ ٢٤٠٠).

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢٢٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٤٣).

وخروج يأجوج ومأجوج علامة على قرب الساعة، لذلك قال تعالى بعد أن أخبر عنهم: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧]

﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو البعث الذي وعد عباده أن يبعثهم من قبورهم ليجازيهم على أعمالهم. ثم أخبر عن ما يكون عليه حال الكفار في ذلك اليوم، فقال: ﴿ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فأبصارهم شاخصة لا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله، ومن توقع ما يخافونه[1]. هذا حالهم، وأما مقالهم فهو: ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل، ويعترفون بذنبهم واستحقاقهم العذاب لغفلتهم عن يوم القيامة، وعن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح. ويعترفون بظلمهم أنفسهم لكفرهم وتكذيبهم الرسل[2]، ولكن اعترافهم هذا لا ينفعهم، بل هم معاقبون على ما كان منهم من الكفر.

ثم انتقلت الآيات إلى وصف عذابهم، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠]

فهم واردون النار، وصائرون حصبا ووقودا لها والعياذ بالله، ولما كان الإنسان في وقت الشدة يلجأ إلى معبوده ويستغيث به، ولما كانوا يتعبدون له سبحانه مع الإشراك، قيد بقوله(من دون الله)، دالاً على أن رتبة ما عبدوه من أدنى المراتب الكائنة تحت رتبته سبحانه[3]، فهي لن تنفعهم ولن تنجيهم من العذاب، لأنها هي الأخرى خالدة مع عابديها فيه، زيادة في التنكيل بهم وبيان كذبهم في اتخاذها آلهة مع الله عز وجل[4]. فلو كانت آلهة حقا ما دخلت النار، بل كانت تمنع من أراد تعذيب عابديها[5]. "وأكد ذلك بقوله استئنافاً: (أنتم لها واردون) "[6]

(١) مفاتيح الغيب للرازي(٢٢/ ٢٢٠)، معالم التنزيل للبغوي (٥ / ٣٥٥)

(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٩٧٦)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣١)

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٣)

(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٦)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣١)

(٥) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤١٤)

(٦) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٣)

"ولما قرعهم من هذا الكلام بما لا جواب لهم عنه غير المكابرة، أعرض عنهم الخطاب استهانة بهم واحتقاراً لهم فقال: (لو كان هؤلاء) أي الذين أهلوهم لرتبة الإلهية وهم في الحقارة بحيث يقذف بهم في النار قذفاً (ءالهة) أي كما زعم العابدون لهم (ما وردوها) " [1]

وللكفار في تلك النار زفير من شدة العذاب، لا يسمعون كلاما طيبا يخفف عنهم ما هم فيه من العذاب والعياذ بالله[2].

ولما ذكر حالهم وحال معبوديهم بغاية الويل، كان موضع السؤال عمن عبدوهم من الصالحين من نبي أو ملك وغيرهما من جميع من عبده سبحانه لا يشرك به شيئاً، فبين أنهم ليسوا مرادين لشيء من ذلك على وجه يعمهم وغيرهم من الصالحين الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا [3] فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠١ – ١٠٣]

فهم مبعدون عن النار غاية البعد، حتى لا يسمعوا صوتها، ولا يروا منظرها. [4] بل هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، بعكس أولئك الكفار الذين هم خالدون في العذاب والعياذ بالله.

ولما كان قد أخبر عن الكفار أنهم يخافون خوفا شديدا في ذلك اليوم، أخبر في مقابل ذلك عن المؤمنين أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر عند النفخة الآخرة[5]، بل تستقبلهم البشرى من الملائكة: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

وبعد أن بينت الآيات أحوال الفريقين من الناس في يوم القيامة، بينت ما يحصل لبعض المخلوقات في ذلك اليوم، زيادة في تهويله لمن له وعي[6]، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤]

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٣- ١١٤)

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤١٥) ، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣١)

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٤٠) ، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٤)

(٤) تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣١)

(٥) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٢٢)

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٥)

يخبر الله تعالى أن السماء يوم القيامة تطوى كما يطوى الكتاب، وأن الله يعيد الخلائق خلقًا جديدًا، ولما كان السامع الجاهل قد يستبعد هذا الأمر، قال تعالى دالا عليه مقربا له على العقول بتشبيه الإعادة بالبدء: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [1].

ولما ذكر صدقه في الوعد وسهولة الأفعال عليه، وكان من محط كثير مما مضى أن من فعل ما لا يرضي الله غيّر عليه، كائناً من كان، ومن فعل ما أمره به نصره وأيده ولو بعد حين، قال تعالى عاطفاً على ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[2]:﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥].

فأرض الجنة لا يرثها ولا يدخلها إلا عباد الله الصالحين، العاملين بطاعته، دون الكافرين العاملين بمعصيته[3].

"ولما كان ما ذكر في هذه السورة من الحكم والدلائل والقصص واعظاً شافياً حكيماً، ومرشداً هادياً عليماً، ولما كانت أخبار اليوم الآخر وأحداثه التي ذكرت في الآيات السابقة هي من الغيبيات التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي، أثنى الله عز وجل على هذا القرآن الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ، فقال جل وعلا واصلاً بما تقدم إشارة إلى أنه نتيجة:﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٦]. فيه البلاغ والكفاية التامة عن كل شيء لمن عبد الله بقيامه بما في هذا الكتاب من الفرائض التي فرضها الله، الموصلة إلى رضوانه، وإدراك الطلبة عنده[4].

ثم عطف عليه ما يفهم سبب تأخير ما يستعجله غير العابدين من العذاب فقال مثنيا على أكمل العابدين وإمامهم، وهو رسول الله ﷺ، الذي أوحي إليه أكمل الكتب، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٦ – ١٠٧]. فجاء الثناء عليه بعد الثناء على الكتاب الذي أوحي إليه. [5]

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٢٥)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير(١٢٤٣)، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٦)

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١١٧)

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٣٤)

(٤)ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٣٧) ، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٥)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣٢).

(٥) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٥)

ولما كان البلاغ الذي رتب هذا لأجله هو التوحيد، ولما كان في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ إشارة إلى تأخيرهم الإيمان وإلى سبب تأخير العذاب عنهم، أتبع ذلك تحذيرهم، فقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٨] أمره أن يدعوهم إلى الإسلام والى شهادة أن لا إله إلا الله، ولما انضم إلى ما مضى من الأدلة العقلية في أمر الوحدانية هذا الدليل السمعي، وكان ذلك موجباً لأن يخشى إنجاز ما توعدهم به فيخلصوا العبادة لله، أشار إلى ذلك مرهباً ومرغباً بقوله: (فهل أنتم مسلمون) فإن قبلوا رسالته وآمنوا بدعوته فقد تمت الرحمة لهم به في الدنيا والآخرة[١].

وأما إن تولوا –وهو أمر مستبعد، لذلك أورده بأداة الشك وهي (إن)– [٢]، فقال عز وجل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٩] وأمر ﷺ أن يعلمهم أنه وهم على علم أن بعضهم لبعض حرب، لا صلح بينهم ولا سلم.[٣] وهذا من الرحمة التي جاء بها ﷺ، حيث أُمر أن يؤذن قومه المعرضين عن التوحيد بالحرب بينه وبينهم، ولا يخونهم. بل هو وإياهم على سواء في العلم بقيام الحرب بينه وبينهم.

ولما كان المتوقع أن يقولوا: نبذت إلينا على سواء فعجل لنا ما تتوعدنا به، قال:[٤]. ﴿ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٩] فهو ﷺ لا يعلم متى يحل بهم ما يوعدون كما أنهم هم لا يعلمون ذلك.

وقد أخبر الله عز وجل عن الكفار في بداية السورة أنهم أنكروا دعوة الرسول ﷺ في سرهم وعلانيتهم، فقال: ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٣]، وقال: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٥] وقال ردا عليهم: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَاۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٤]. ثم أعاد التأكيد في خاتمة السورة على علم الله عز وجل بالقول كله، سره وجهره، لأنه لما ذكر الغيبيات من أخبار

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٤١) ، نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٥– ١٢٦)

(٢) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٦)

(٣) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٤٢)

(٤) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٦)

يوم القيامة ربما وقع في بعض النفوس تكذيب لها، وقد يصرح بعض من كذبها بالتكذيب ويجهر به، وقد يسره ويخفيه، فجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١١٠] تخويفاً من التكذيب، وأنه لا ينفع المكذبين إسراره لأن الله تعالى يعلمه، سواء أسروه أم جهروا به، ويجازيهم عليه. "ونبه الله تعالى على علمه بالجهر لأن من أحواله أن ترتفع الأصوات جداً بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله أكثر القائلين، فأعلم سبحانه أنه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شيء عن ذلك ولو كثر"[١]

ثم حذرهم تعالى من الاغترار بإمهال الله لهم، إذ ربما كان هذا الإمهال فتنة واستدراجا، لذلك قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة الأنبياء: ١١١] لعل تأخير العذاب الذي استعجلوه شر لهم، فيتمتعون في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتهم[٢].

وبعد ذكر الفتنة "كان كأنه قيل: فما قال الرسول الشفوق على الأمة حين سمع هذا الخطاب؟"[٣] فقال عز وجل: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١١٢]

دعا الرسول ﷺ ربه عز وجل أن يفصل بينه وبين من كذبه من مشركي قومه، وكفر بالله عز وجل، وعبد غيره، بإحلال عذابه ونقمته بهم. وذلك هو الحق الذي أمر الله تعالى نبيه أن يسأل ربه الحكم به.[٤]

"﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ مما هو ناشيء عن غفلتكم الناشئة عن إعراضكم عن هذا الذكر من الاستهزاء والقذف بالسحر وغيره، والمناصبة بالعداوة والتوعد بكل شر.

فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة رداً على قوله (اقترب للناس حسابهم) وذكر غفلتهم وإعراضهم، وذكر القرآن الذي هو البلاغ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك. وقام الدليل بالسمع بعد العقل على تحقق أمر الساعة بأنه سبحانه لا شريك له يمنعه من ذلك، وأنه يعلم السر وأخفى،

---

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٧)

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٧)، تيسير الكريم الرحمن للسعدي(٥٣٢)

(٣) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٧)

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٦/ ٤٤٣)

وهو الرحمن، فمن رحمته إيجاد يوم الدين ليجازي فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بكفرانه، وفي ذلك أعظم ترهيب في أعلى حاث على التقوى للنجاة في ذلك اليوم، وهو أول السورة التي تليها"[1] وهذا الختام للسورة فيه إشارة إلى عاقبة هذا الدين "لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين"[2].

(١) نظم الدرر للبقاعي(٥ / ١٢٨)

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور(١٧ / ١٢٨)

الـخـاتـمـة

وتشتمل على:

- أهم النتائج
- التوصيات

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وبعد...

فقد تم هذا البحث الذي قصد منه إبراز التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء، والحمد لله الذي يسر وأعان ووفق، وأسأله تعالى أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه الكريم.

وفيما يلي أبرز النتائج والتوصيات:

أولا: أبرز النتائج التي ظهرت من هذا البحث:

١. لم يرد في تسمية سورة الأنبياء اسم توقيفي عن النبي ﷺ سوى هذا الاسم، وهو الاسم الذي اشتهرت به السورة في كتب التفسير والحديث.

٢. لم يرد في فضل سورة الأنبياء بخصوصها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ.

٣. سورة الأنبياء بجميع آياتها مكية، إذ لا دليل على استثناء شيء من آياتها.

٤. هناك ترابط وثيق بين سورتي الأنبياء وطه، وسورتي الأنبياء والحج؛ فسورة طه بسطت قصة موسى وهارون مع فرعون الذي كذبهما وأنكر ما جاءا به من الحق، وسورة الأنبياء أخبرت عن إنكار المشركين وتكذيبهم واستهزائهم. وعرضت سورة طه الجدال الذي دار بين موسى وهارون عليهما السلام وبين فرعون في تقرير التوحيد والبعث. وسورة الأنبياء افتتحت بتقرير البعث والاحتجاج على منكريه بالحجج المختلفة، وأوردت الجدال بين إبراهيم وقومه حول ذلك.

وجاء في سورة الأنبياء ذكر عدد من الأنبياء، وسورة طه فصلت قصة موسى وهارون، وذكرت طرفا من قصة أبي الأنبياء آدم عليه السلام.

وسورة طه افتتحت بذكر القرآن الكريم، وأنه لا يشقى حامله، وسورة الأنبياء جاء في فاتحتها ذكر القرآن الكريم، وأنه شرف لحامله.

وختمت سورة طه بجزاء المؤمنين والكافرين، وكذلك سورة الأنبياء.

وأما سورة الحج -السورة التالية لسورة الأنبياء في ترتيب المصحف- فافتتحت بما افتتحت به سورة الأنبياء من تقرير البعث، وجاءت الإشارة فيها إلى بعض الأنبياء الذين ذكروا في سورة الأنبياء، وذكر فيها عاقبة المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، كما في سورة الأنبياء.

٥. أوردت بعض كتب التفسير والحديث أسبابا لنزول بعض الآيات في سورة الأنبياء، بعضها غير صحيح، وبعضها غير صريح، لكن صح حديث واحد في سبب نزول قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾.

٦. الهدف الأبرز لسورة الأنبياء هو تقرير الإيمان، والمقاصد العامة التي قررتها هي وحدانية الله جل وعلا، والساعة، والرسول، والرسالة.

٧. المناسبة بين اسم سورة الأنبياء وبين موضوعاتها ظاهرة، وذلك أن موضوعات السورة كانت عن التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء، وذكرت قصصهم مع أممهم، وعاقبتهم في الدنيا والآخرة.

وأما فاتحة السورة الكريمة فقد بينت موقف الناس من الرسول والرسالة التي جاء بها، ثم شرعت السورة في تقرير صحة رسالة الرسل، وصحة ما جاءوا به، وعاقبة من قبل دعوتهم وعاقبة من ردها.

٨. بعد النظر والتأمل في السورة الكريمة ظهر أن موضوعها هو: تقرير أركان الإيمان، من التوحيد، والبعث، والرسالة، والرسول. والموضوعات التي عالجتها هي:

أ- تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين.

ب- تقرير البعث ووحدانية الله تعالى.

ت- إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم.

ث- بيان عاقبة المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

٩. الموضوعات الرئيسية في السورة تتناسب تناسبا لطيفا مع معانيها وألفاظها، فهي تمضي في سياق متآلف، وبأسلوب متناسق مترابط، تتناسب فواتحها مع موضوعاتها، و فواتحها مع خواتمها، ومعانيها مع أحرفها وكلماتها. كل ذلك في سياقها العام، تبرز فيه كل آية كأنها بنيان متصل متآلف أشد التآلف.

ثانيا: التوصيات:

١. أوصي الباحثين بدراسة قصص الأنبياء بصورة مستقلة، وإبراز الجوانب المشتركة بين قصصهم ، من الصبر، والعبادة، والخشوع، وغيرها. وإبراز التناسق بين الجوانب المذكورة من قصصهم في هذه السورة وغيرها من السور الكريمة.

٢. أوصي الراغبين في دعم المشاريع العلمية بدعم مشروع التناسق الموضوعي في سور القرآن، لما له من أهمية في إبراز بعض أوجه إعجاز القرآن.

٣. أوصي الجامعة الموقرة بطباعة ملخص لكل سورة من السور الكريمة التي بحثت ضمن هذا المشروع، وتوزيعه للمدارس، والمعاهد، ودور التحفيظ.

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهارس

وتشتمل على:

١. فهرس الآيات القرآنية.

٢. فهرس الأحاديث والآثار.

٣. فهرس الأعلام.

٤. فهرس المصادر والمراجع.

٥. فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

م	الآية	السورة	الصفحة
١	{أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ }	البقرة	٦٧
٢	{شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ...}	البقرة	٢٥
٣	{سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ...}	البقرة	٢٨
٤	{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ...}	البقرة	٢٨
٥	{وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ	البقرة	١٣٢
٦	{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...}	النساء	٩٨
٧	{لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ...}	المائدة	٤٥
٨	{إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ...}	المائدة	١٠٧
٩	{يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ...}	الأعراف	١٣١
١٠	{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ }	الأنفال	٨٧
١١	{هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ }	يونس	٨١
١٢	{ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ }	يونس	٧٥
١٣	{إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ }	يوسف	١٤٨
١٤	{أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ...}	يوسف	١٣١

م	الآية	السورة	الصفحة
١٥	{كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ	إبراهيم	٢٥
١٦	{وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ }	الحجر	٨٤، ١٢٧
١٧	{وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ...}	الحجر	٧٨
١٨	{وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ...}	الإسراء	٤٦
١٩	{أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ }	الإسراء	٨٣
٢٠	{قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ ...}	الكهف	١٥٢
٢١	{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ...}	طه	٤٠
٢٢	{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ }	الحج	٤٢
٢٣	{وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ...}	الحج	١٣١
٢٤	{وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ }	الحج	٨٤، ١٢٧
٢٥	{مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ ...}	المؤمنون	٨٠
٢٦	{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }	المؤمنون	٧٨
٢٧	{وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ }	النور	٨٣
٢٨	{تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا }	الفرقان	٢٥
٢٩	{وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ...}	الفرقان	٨٣
٣٠	{لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ }	الشعراء	١٤٢

م	الآية	السورة	الصفحة
٣١	{قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...}	النمل	١٠٤
٣٢	{وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ...}	القصص	١٢٧
٣٣	{خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}	لقمان	٨٣
٣٤	{يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ...}	سبأ	١٠٤، ١٤٧
٣٥	{وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ}	ص	١٢٨
٣٦	{وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ}	ص	١٠٤
٣٧	{إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ}	ص	١٢٨
٣٨	{ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ}	الزمر	١٢٥
٣٩	{فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ...}	غافر	٧٥
٤٠	{شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ...}	الشورى	١٣
٤١	{وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ...}	فصلت	٨٣
٤٢	{وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ...}	الدخان	٧٨
٤٣	{مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}	الأحقاف	٧٩
٤٤	{أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}	ق	٨٥
٤٥	{أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ}	الطور	٨٧، ١٢٨
٤٦	{لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى}	النجم	٦١، ١٢١

م	الآية	السورة	الصفحة
٤٧	{ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ }	القمر	١٠٢، ١٤٥
٤٨	{ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }	الملك	٨٨
٤٩	{ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ... }	الملك	٨٤
٥٠	{ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا }	نوح	١٠٢، ١٤٥
٥١	{وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ... }	النبأ	١٢٧
٥٢	{وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا }	النبأ	١٠٤

فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث أو الأثر	رقم الصفحة
• ((بل أستأني بقومي))	٤٥
• ((بل لكل من عبد من دون الله))	٤٠
• ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك ..))	١٢٧
• ((لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ..))	١٤٠
• ابن مسعود: ((والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت...))	٤٤
• ابن عباس: ((أن قدامة شرب الخمر...))	٤٤
• ابن عباس: ((آية لا يسألني الناس عنها...))	٤٦
• قتادة: ((قال أهل مكة: ...))	٤٥
• ابن جريج: ((نعي إلى النبي ﷺ نفسه...))	٤٦،
• ((الأنبياء إخوة من علات...))	٥٦،
• ((الإيمان ان تؤمن...))	٥٦
• ابن عباس: ((دينكم دين واحد))	٥٨
• ((يارب فمن لأمتي...))	٤٦
• ((أي الناس أشد بلاء...))	٨٨
• ((ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ...))	١١٠

فهرس الأعلام

م	العلم	الصفحة
١.	البقاعي	٩
٢.	ابن الجوزي	٣٥
٣.	ابن الزبعرى	٤٦
٤.	ابن المنذر	٤٦
٥.	ابن تيمية	٤٤
٦.	ابن جريج	٤٦
٧.	أبو جعفر الغرناطي	٩
٨.	ابن حجر	٢٥
٩.	حوى	١١
١٠.	ابن عباس	٣٥، ٤٤، ٤٦، ٥٨
١١.	ابن مسعود	٢١، ٢٥، ٣٦، ٣١، ٤٤
١٢.	أبو حيان	٨، ٣٥
١٣.	دراز	٨
١٤.	الرازي	٦
١٥.	الرازي	٦
١٦.	الزرقاني	٦٦
١٧.	الزركشي	٣٦
١٨.	سعد بن أبي وقاص	٨٨
١٩.	أبو السعود	٨
٢٠.	السيوطي	٥،١٤، ٢٥، ٣٦
٢١.	الطاهر ابن عاشور	٥،١٥،٢١، ٢٥

م	العلم	الصفحة
٢٢.	الطبري	١٤، ٣٦
٢٣.	عمر	٣٤
٢٤.	الفيروز آبادي	٩
٢٥.	قتادة	٤٥
٢٦.	قدامة	٣٤
٢٧.	قطب	١٠
٢٨.	القرطبي	٣٥
٢٩.	النواس بن سمعان	١١٠
٣٠.	الواحدي	٤٤

فهرس المصادر والمراجع

- **الإتقان في علوم القرآن**، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده (مصر) ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي(بيروت).
- **الأساس في التفسير**، لسعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة)، الطبعة الخامسة، ١٤١٩- ١٩٩٩م
- **أسباب النزول** لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه (القاهرة)، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت-لبنان)، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م.
- **الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية** ، عمر بن علي بن موسى البزار، تحقيق : زهير الشاويش، المكتب الإسلامي(بيروت) الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ
- **الأعلام**، لخير الدين بن محمود ، الزركلي، دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢ م.
- **البحر المحيط** لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل(٧/ ٤٠٦)، دار الفكر (بيروت) ١٤٢٠هـ
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، لمحمد بن علي الشوكاني ، دار المعرفة- بيروت.
- **البرهان في تناسب سور القرآن** لأبي جعفر الغرناطي، تحقيق : محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (المغرب)١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم(١/ ١٩٣)، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ
- **البيان في عد آي القرآن** لأبي عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، ص ٦٧، مركز المخطوطات والتراث (الكويت)، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م

- **تتمة الأعلام** لمحمد خير رمضان. دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢ م.
- **التحرير والتنوير** لمحمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
- **تفسير ابن المنذر**، أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ، تحقيق: د.سعد بن محمد السعد، دار المآثر (المدينة النبوية)الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م.
- **التفسير الحديث**، لمحمد عزة دروزة ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٢١- ٢٠٠٠م
- **تفسير القرآن العظيم**، لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الكتاب العربي (بيروت) الطبعة الثانية ١٤٢٧- ٢٠٠٧م
- **تفسير المراغي**، لأحمد مصطفى المراغى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده (القاهرة).
- **التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه**: أ.د.زياد الدغامين دار عمار، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
- **التناسق الموضوعي في سورة الأنفال** (رسالة ماجستير): إعداد: بدر الذيابي، إشراف الشيخ الدكتور: طه عابدين.
- **تهذيب التهذيب**: لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية (الهند)، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار هجر.
- **الجامع الصحيح المسند من أخبار رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، لمحمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م
- **الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب الصرية (القاهرة) الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعين ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر اباد/ الهند)، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- **ذيل طبقات الحفاظ** ، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية.
- **ذيل طبقات الحنابلة** لأحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان (الرياض)، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ-٢٠٠٥ م.
- **زاد المسير في علم التفسير** لجمال الدين ابن الجوزي، المكتب الإسلامي (بيروت) الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م
- **السنن الكبرى للنسائي**، تحقيق: حسن شلبي، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.
- **شرح العقيدة الطحاوية** لصدر الدين محمد بن علاء الدين ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاكر ، وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- **الصحاح في اللغة**، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار(٢/ ٤٥٠)، دار العلم للملايين الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- **صحيح السيرة النبوية**، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية (عمَّان-الأردن) الطبعة الأولى.
- **الصحيح المسند من أسباب النزول**، للشيخ مقبل بن هادى الوادعى، مكتبة ابن تيمية(القاهرة)، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م
- **صحيح مسلم**، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ.
- **طبقات الشافعية**، لتقي الدين ابن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب(بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
- **طبقات المفسرين العشرين** ، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة (القاهرة)، الطبعة: الأولى، ١٣٩٦.

- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** لابن حجر العسقلاني، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد (السعودية).
- **فتح القدير**: المؤلف: محمد بن علي بن الشوكاني ، عالم الكتب الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ
- **الفروق في اللغة**، لأبي هلال العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة (بيروت) ١٤٠٠هـ
- **في ظلال القرآن**، لسيد قطب إبراهيم ، دار الشروق(القاهرة)، الطبعة: الخامسة عشر١٤١٢ هـ.
- **القاموس المحيط**، للفيروز ابادي، رتبه: خليل مأمون شيحا، ، دار المعرفة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
- **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. أحمد الحمادي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قطر)، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لجار الله الزمخشري، انتشارات آفتاب (طهران).
- **لباب النقول في أسباب النزول**، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية (بيروت)
- **لسان العرب** لابن منظور، دار صادر (بيروت)، الطبعة الأولى.
- **مباحث في علوم القرآن**، لمناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- **مجموع فتاوى ابن تيمية** ، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (المدينة النبوية) ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لابن عطية الأندلسي تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ.
- **المحيط في اللغة**، للصاحب إسماعيل ابن عباد بن العباس الطالقاني، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ -١٩٩٤ م.
- **مختار الصحاح**، لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت) ، ١٤١٥ – ١٩٩٥م

- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، للنسفي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ.
- **المدخل إلى التفسير الموضوعي**: د.عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية١٤١١هـ – ١٩٩١م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ-٢٠٠١ م.
- **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر وآخرون، دار طيبة(الرياض).
- **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية، (تركيا).
- **مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي** ، دار إحياء التراث العربي (بيروت) الطبعة الثالثة.
- **مفردات القرآن** للراغب الأصفهاني، دار القلم(دمشق)، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ.
- **مقاييس اللغة**، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، لمحمد عبد العظيم الزرقاني،دار إحياء التراث العربي (بيروت).
- **المنتقى في علوم القرآن** ، أ.د. طه عابدين طه ، دار الأندلس (حائل) ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م
- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ليحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي (بيروت) الطبعة الثانية ١٣٩٢
- **الموضوعات**، لجمال الدين ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الكتب العلمية، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** لبرهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية (بيروت) ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م.
- **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**، لمحي الدين عبد القادر العَيْدَرُوس، الناشر: دار الكتب العلمية(بيروت)، الطبعة الأولى، ١٤٠٥.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لشمس الدين أحمد ابن خلكان ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت).

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص الرسالة بالعربية	٤
ملخص الرسالة بالانجليزية	٥
شكر وتقدير	٦
المقدمة	٧
الباب الأول: التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء مقدمات تعريفية	١٦
التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في سورة الأنبياء لغة واصطلاحا	١٨
الفصل الأول: اسم سورة الأنبياء وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها	٢٠
المبحث الأول: اسم سورة الأنبياء	٢١
المبحث الثاني: فضل سورة الأنبياء	٢٤
المبحث الثالث: عدد آيات سورة الأنبياء واختلاف العلماء في ذلك	٢٧
المبحث الرابع: تاريخ نزول سورة الأنبياء	٣١
الفصل الثاني: مكي سورة الأنبياء ومدنيها ومناسبتها لما قبلها	٣٣
المبحث الأول: المكي والمدني في سورة الأنبياء	٣٤
المبحث الثاني: مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها وما بعدها	٣٨
الفصل الثالث: أسباب نزول سورة الأنبياء ومقاصدها	٤٣
المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في سورة الأنبياء	٤٤
المبحث الثاني: مقاصد سورة الأنبياء وأهدافها	٤٩
الباب الثاني: التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء دراسة تطبيقية	٥٤
الفصل الأول: مناسبات سورة الأنبياء	٥٥
المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعاتها	٥٦

الموضوع	رقم الصفحة

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها	٦٠
المبحث الثالث: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها	٦٣
الفصل الثاني: موضوعات سورة الأنبياء وتناسقها	٦٦
المبحث الأول: تكذيب العباد بالساعة وبالرسول المنذر بها، وبالكتاب المنزل عليه، وبيان عاقبة المكذبين	٧٠
المبحث الثاني: تقرير البعث ووحدانية الله تعالى	٧٦
المبحث الثالث: إبراز نماذج من الدعوة الواحدة للرسل، وبيان نصرة الله وتأييده لهم	٩٣
المبحث الرابع: بيان عاقبة المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة	١٠٩
الفصل الثالث: تفسير آيات سورة الأنبياء في ضوء تناسقها الموضوعي	١١٤
الخاتمة	١٥٩
الفهارس	١٦٣
فهرس الآيات القرآنية	١٦٤
فهرس الأحاديث والآثار	١٦٨
فهرس الأعلام	١٦٩
فهرس المصادر والمراجع	١٧١
فهرس الموضوعات	١٧٨